قصص

# المجموعة القصصية الخامسة



أحمد ابراهيم الفقيه

# مقابلة صحفية

نزع النظارة من فوق عينيه، فظهر الانتفاخ الذى يحيط بهما ويجعلهما تشبهان أعين الضفادع، فتح عينا وأغمض الأخرى، ورفع حاجباً وأبقى الآخر ثابتا، وحرك فمه بطريقة تشبه التثاؤب، ليسألنى قائلا:

- ما الذى تريده بالضبط؟

كنت مرتبكا، لا أريد شيئا سوى أن أترك هذا المكان، وأهرب من لحظة المواجهة مع هذا الرجل. فأنا مجرد محرر حديث التعيين بصحيفة " الزمان "، أعاون صحفيا أكبر مني، فى إجراء مقابلات صحفية، استكمالا للملف الذى تنشره الصحيفة عن فساد الروتين الإداري.

لم أكن لأستغرب أن يرفض مقابلتي، ولكن بعد أن أذن بالمقابلة، واستمع منى إلى طبيعة الموضوع الذى ستدور حوله الأسئلة، فقد بدا غريبا أن يسألنى هذا السؤال الاستنكارى. تأملته وهو يجلس خلف مكتبه الذى اكتظ بالأوراق والأضابير والسجلات وأجهزة الهاتف، ومن حوله أرفف تمتلئ بنماذج كرتونية للقرى السياحية والمشاريع الإسكانية التى تنفذها المؤسسة الاستثمارية التى يديرها

لحساب المجتمع، بينما امتلأت الجدران بشهادات التقدير التى حصلت عليها المؤسسة، وصور الحفلات التى أقيمت تكريما لها، تزين بعضها تعليقات المسئولين، وكتبت تحت إحداها أبيات من الشعر بخط كبير تشيد بنجاح المؤسسة التى لا تلمس شيئا إلاّ وتحيله إلى ذهب. ووسط هذه الغابة الورقية، جلس الرجل الذى يمتلئ زهوا بإنجازاته الذهبية. تهدل لحم العنق حتى غطى ياقة القميص، وانحسر الشعر عن مقدمة الرأس، فلم يبق منه سوى دائرة صغيرة، اختلط بياضها بسوادها تحيط بصلعة حمراء تلمع تحت ضوء المصباح المعلق فى سقف المكتب، ومن تحت الصلعة وجه غليظ الملامح، كثيف الحاجبين، أضفى عليه الغضب مسحة من العنف والقسوة، جعلنى أشعر بالفزع وأنا أسأل نفسى إن كانت ملامحى حقا ستؤول إلى هذا المصير عندما أصل إلى سنه. أوضحت له بأقصى ما أستطيع من تهذيب، أننى أنتمى إلى صحيفة تسعى إلى معرفة الحقيقة، وتقديمها لقراء يهمهم أمر هذه المؤسسة الكبيرة التى يديرها بالنيابة عنهم.

ترك الرجل مكتبه وجاء ليقف فى مواجهتي. أدركت إنه ازداد غضبا منى عندما ربطت بين القراء وبين هذا

المنصب الذى جاءه بتفويض منهم. ولكنها الحقيقة حتى وإن ظن نفسه مبعوث العناية الإلهية لتحويل التراب إلى ذهب. بقيت جالسا فى مقعدى أرفع إليه بصري، وأنتظر أن أسمع رده على ردي. أطلق ضحكة قصيرة هازئة قبل أن يقول :

- هل حقا تريدون معرفة الحقيقة، أم أنتم تريدون طمس الحقيقة وتزييفها وتشويهها خدمة لجهات وعناصر مشبوهة، تستخدمكم، وتجعل منكم أدوات رخيصة تلعب بها.

فاجأتنى لهجة الاتهام والإدانة التى يخاطبنى بها. كنت قد قرأت ما نشرته الصحيفة من حلقات حول هذه القضية، ولم أر سطرا واحدا يشير إليه بخير أو بسوء، فما الذى أحاله إلى كتلة أعصاب مشتعلة. جلست أنظر إليه حائرا، وقد بدا فى وقفته تلك، بهامته العالية، وبنائه المتين، ووجهه الغاضب، وكأنه تمثال لإله حجرى من آلهة الأولمب، أحكم سيطرته على الزمان والمكان، وادخر فى جيبه رعودا وبروقا سوف يرمى بها فى وجه كل من يجادله أو يستفزه. اخترت ضبط الأعصاب، مستعينا بما تعلمته فى مراحل التمرين الصحفي، من أن استثارة الشخص الذى نجرى معه المقابلة ستفضى بالضرورة إلى أجوبة مثيرة وغير تقليدية.

لم أكن قد استخدمت أية تقنية صحفية للوصول إلى هذه النتيجة، وطالما أنها جاءت عفوا، فلماذا لا أستفيد بها. قلت بلهجة هادئة إن ما يقوله يناقض الحقيقة، وأن لصحيفتنا تاريخا طويلا، يشهد بمواقفها الوطنية وسعيها لخدمة الصالح العام، وإننى أتعهد أمامه بنشر كل كلمة يقولها.

واصل عزف نشيده الغاضب :

- كيف لا أغضب وأنا أرى معاول الهدم تهدد كل بناء. عن أى فساد وأى روتين تتحدثون. هناك دائما الفاشلون وأعداء النجاح فى مواجهة الناجحين، أليس كذلك؟ هناك الكسالى وأعداء العمل فى مواجهة العاملين. أليس كذلك؟ هناك الهاربون من أعباء الحياة فى مواجهة أولئك الذين يقبلون على حمل الأعباء ويصنعون التقدم ويخدمون الحياة، أليس كذلك؟

احتفظت بالصمت إزاء " أليس كذلك "، التى يرمى بها فى وجهى منتظراً أن أقول له " نعم ". فعلت ذلك استفزازا له لأننى أعرف إلى أى مدى يحب أمثاله هذه الكلمة حتى صارت ترياقا لا يعيشون إلا به. واصل هديره :

- وأنتم للأسف الشديد، تأخذون أقوال هؤلاء الحاقدين والموتورين وتروجون لها فى الصحف وتجعلون منها قضية تشغل الرأى العام. أليس هذا ما تفعلونه؟

ما أسهل استخدام هذه العبارات المحفوظة الجاهزة، التى جاء يرصها فوق بعضها البعض ويصنع منها متراسا يختفى خلفه. لعله أراد أن يستغفلنى عندما اختار أن يعترض على المبدأ ويهمل التفاصيل، ولكننى أعرف جيدا أن الدخول فى التفاصيل، سوف يحرمه من هذا الزهو، ويعيده إلى مواجهة الحقائق التى تدين تفكيره وسلوكه. جئت لإجراء مقابلة صحفية، فوجدت نفسى أدخل جدلا عقيما حول الصراع بين الفشل والنجاح. إنه يدافع عن الناجحين، وكأنه شيخهم الذى سيحمل رايتهم إلى النار. قلت أتحدى غرور الرجل :

- هل معنى ذلك أن نمنح الناجحين حصانة تعفيهم من الحساب والعقاب.

أطلق ضحكة أكثر صخبا، وأبلغ تعبيرا عن مشاعر الاستهزاء والسخرية :

- لاشك إنكم تحتفظون بهذه الحصانة للراقدين فى توابيت الفشل والحقد والجهل والكسل العقلي، فلماذا نسلبها منهم. ولكن أخبرنى من أنتم، حتى تحاسبوا الناس وتهددونهم بالعقاب، تهربون من ميادين العمل والإنتاج وتستهلكون ورقا وحبرا كان أحرى به أن يصبح كتبا وكراريس للمدارس. ألا تخجلون من أنفسكم، ومن نشر حملات التشهير التى تبدأ ولا تنتهي؟ من يقرأ صحيفتكم لا يرى سوى القيم التى انهارت. الذمم التى فسدت. العفونة التى تفوح من الدواوين والدكاكين والبيوت، الضباع التى تنهش لحم الوطن. لا يرى سوى السقوط والانحراف والخراب. لقد انقرض الشرفاء من الدنيا، ولم يبق غير محرر صحيفتكم، ينعق مثل غراب الشؤم فوق هذه الخرائب، وينذر الدنيا بمجيء يوم القيامة.

لا أريد صداما معه.

جئت بفكر مفتوح أبحث عن فرصة للتواصل مع الرجل، وتقريب المسافة بينى وبينه. وهاهى المسافة تزداد اتساعا، بعد أن أقفل، بكبرياء وغشامة باب الحوار.

كنت أستمع إليه دون أن أستمع إليه. فما يقوله من كلام ضد الصحافة سبق أن سمعته، ومنعته من أن يصل إلى

عقلى وقلبي. كنت شاردا مع نفسي، أسألها سؤالا واحدا، هو ما الذى أفعله فى هذا المكان. فما أكثر الدواوين والرجال ممن يحتفون بي، ويحفظون لى مكانتي، ويرحبون بظهور أسمائهم على صدر صحيفتي، أدركت أنه لا فائدة من مناقشة آرائه المعادية لمهنتي. فقلت أحسم الموقف.

- هل يمكن أن أطرح أسئلتى المحددة التى يسعدنى أن أسمع إجابتك عليها؟.

- دعنى أقول لك إننى أحب أن أعمل فى صمت. وأن الصخب الذى تصنعه الصحافة سينعكس سلبا على هذه المؤسسة. إننى لا أتعامل مع الداخل فقط، وإنما أتعامل مع الخارج أيضا، حيث لكل كلمة وقعها ونتائجها. من له خصومة معنا فليذهب بها الى المحاكم التى يمكنها أن تجرى التحقيقات وتعقد المحاكمات، أما التحقيقات التى تقومون بها أنتم، والمحاكمات التى تعقدونها، فاسمح لى بأننى لست معنيا بها.

إنه يرفض إجراء هذه المقابلة الصحفية، لأنه يعرف أننى أعرف الكثير عن هذه المؤسسة، كما أعرف الكثير عن أسلوبه الاستبدادى فى الإدارة الذى لا يعترف برأى يخالف

رأيه، ويضيق بكل إنسان يقف فى وجهه. غير جوانب أخرى أكثر خطورة، هو على يقين بأننى لن أتكلم عنها، لأننى لا أريد أن أصل بالصدام إلى حدوده القصوى، فهى تتصل بمكاتب وشركات تتغذى بأموال هذه المؤسسة وتحتكر التعامل معها، لأنه يملك حصصا وأسهما فيها، تضيف إلى أمواله مالا جديدا كل يوم. كنت فعلا أريد أن أكتب تحقيقا صحفيا عنه وأعطيه للمحرر المسئول عن الملف يعيد صياغته ويضع اسمه فوقه. يشيد بمهارات الرجل ونجاحه فى سوق المال والتجارة وينتقد بصراحة أساليبه التقليدى التسلطى فى الإدارة، ولكن التحقيق سيظل ناقصا طالما رفض الرجل الحديث. إنه بطل القصة فى النهاية، والكتابة عنه دون أن يظهر بأفعاله وأقواله ستكون كمن يكتب مسرحية عن الملك ميداس دون أن يظهر ميداس على المسرح.

هل أعترف بهزيمتي، وأطوى أوراقى وأنسحب، يبدو أنه لاخيار لى غير هذا الخيار، أمام تعنت الملك ميداس ورغبته فى أن يبقى مختفيا خلف الكواليس. قلت وأنا أهم بالوقوف.

- إنك لا تريد أن تساعدني.

تركنى أمضى إلى أن وضعت يدى على أكرة الباب، ونادانى قائلا:

- تعالى هنا يا ولد. ألم يجدوا أحدا غيرك يرسلونه لي؟.

- لم يرسلنى أحد. لقد اختلقت هذا التحقيق الصحفى ليكون ذريعة أستخدمها فى لقائك.

كنت أعرف أنه اعتاد ارتداء الأقنعة التى لا يخلعها أبدا. يعامل البشر فى المؤسسة من خلال قناع السلطة، سلطة المدير، ويعامل أهله فى البيت من خلال قناع سلطة الأب والمدير معا. فجئت اليوم أرتدى أقنعتى الجديدة، لعلنى أجد لغة مشتركة أخاطبه بها.

قال مستنكرا.

- ولماذا افتعال الذريعة وأنا لم أقفل الباب فى وجهك؟.

لقد أقفل الباب وأبقانى سجين أفكاره وآرائه كل ما مضى من عمري، فلا أضع فى فمى شيئا إلى بعد أن يمضغه لى هو. أكملت دراستى الجامعية فى كلية الحقوق

التى اختارها لي، وأردت الاشتغال بالصحافة التى اخترتها لنفسي، فأعلن حربه ضد هذه الرغبة لأنه لا يريدنى أن أخرج من تحت وصايته. وهيأ لى مكانا بجواره، لكى أساعده فى تحصيل أمواله، لأنه لا يأتمن أولئك الغرباء الذين يديرون شركاته. عافت نفسى أموال الملك ميداس، التى تأتى عن طريق آخر غير طريق العدل والقانون كما عرفتهما أثناء دراسة الحقوق. فرفضته ورفضت عروضه. مزقت القماط الذى كان يلفنى فيه، وخرجت إلى فضاء الدنيا أبحث عن فرصة فى المجال الذى أحبه، مضت أشهر كثيرة دون أن أراه، وعندما فكرت فى زيارته، اخترت أن أتوسل بالصحافة، لإجراء حوار معه، أعيد به ما انقطع من تواصل بيننا. لم أكن أعرف أن عناده، لن يتيح لى هذا الترف.

- أراك مازلت راكبا رأسك، عازما على مواصلة العمل فى مهنة لن تجلب لك سوى الندم والمتاعب.

كدت أخاطبه مستخدما اسم الملك ميداس، قائلا له، إننى أرفض أن أتحول إلى تمثال من ذهب لمجرد لمسة من يده، لأننى أحب أن أبقى إنسانا يعيش بين البشر ولكننى بدلا من ذلك أحنيت فى صمت رأسي، وفتحت الباب وخرجت،

يملأنى إحساس بالعار والإثم، لأننى وأنا أجلس أمامه، تذكرت كتابا يتحدث عن تلك الرغبة اللعينة القابعة فى ظلمات العقل الباطن التى يسميها الكتاب الرغبة فى قتل الأب.

# لزوم ما لا يلزم

ولزوم ما لا يلزم هو أن يتحدث الكاتب شارحا عمله الإبداعي، وكأن هذا الإبداع عاجز عن تقديم نفسه للقـارئ. إنه بهذا الشرح يخطئ ثلاث مرات. مرة فـى حـق نفسـه، عندما يتقدم لأداء مهمة هو آخر الناس اسـتعدادا لهـا، لأن مهمته أن ينتج فنا، أما تحليل عناصر هذا الفـن واكتشـاف إبعاده ودلالاته ومناطق الضعف والقوة فيه، فهى مهمة ناقـد له أدواته التى تختلف عـن أدوات منشـئ العمـل الفنـي، ويستطيع بهذه الأدوات أن يقترب من فهم واستيعاب أسـرار المنتج الفني التى غالبا ما تغيب عن المبدع نفسه. ومرة ثانية فى حق نصه الإبداعي الذى يجب أن يبقى متعدد الـدلالات والمستويات، مفتوحا على كل الاحتمالات، مانحا نفسه لعـدد من القراءات والتفسيرات، بحيث يستطيع القارئ أن يجد فيه شيئا يتفق مع رؤاه ومداركه، حتى وإن لم يتطابق، بل مـن الخير ألا يتطابق، مع ما يراه الكاتب نفسه. وهـذا الشـرح سوف يكون قفصا يحبس النص فى معنى من المعانى التـى أرادها الكاتب. ومرة ثالثة فى شأن القارئ، الذى جاء يسـد الأفق أمامه، ويصادر حقه فى أن يتمثل العمل وفقا لما تقوده

إليه معارفه وخبراته، ويفسد بكلماته الشارحة متعة المغامرة والاكتشاف لديه، ويكون فى هذه الحالة كمـن يقـف أمـام المسرح، ينقل للمتفرج أحداث المسرحية قبل أن يشاهدها.

لماذا إذن أتورط فى كتابة هذه المقدمة التى لا تقول شيئاً سوى استنكار وهجاء هذه المقدمات؟ السبب الذى مـن أجله غامرت بارتكاب هذه الخطيئة هو تبرير خطيئة أخرى، أكثر حماقة، ساقتنى إليها الشخصيات القصصية فـى هـذه المجموعة، التى أرادت أن تستخدمنى فى التعبير عن همـوم سياسية، ولعلها لا تعلم أن اقتحام ميادين السياسـة مغـامرة شديدة الخطورة، تشبه الدخول الى حقل مليء بالألغام. ومـا سأقوله هنا لن يكون شبيها بتلك المقدمات التى كثيرا ما رأينا كتاب القصة يستبقون بها المشاكل ويحاولون القفـز فوقهـا، عندما يبادرون بتبليغ القراء أن الأحداث والشخصـيات فـى هذه القصص إنما هى أحداث وشخصـيات وهميـة وأن أى تشابه بينها وبين أشخاص حقيقيين هو من قبيل الصدفة. لـن أقول هذا الكلام، لأننى أدرك أن القصة لا تكون قصة إلا إذا كانت حقا وصدقا من أعمال الخيال. وإذا جاء من يخلط بين نفسه وبين الخيال، فهو إذن أشبه باللص فى الخرافة الشعبية،

الذى وقف أمام المسجد مع حشد المصلين يـدعى الصـلاح والتقوى، وما أن سمع صوتا يقول بأن اللص علـى رأسـه ريشة، حتى رفع يده يتحسس الريشة الوهمية، التى لا وجود لها إلا فى عقل ذلك العبقرى الذى استخدم خياله وصنع بـه فخاً يصطاد به اللصوص. نعم، إن الخيال يستطيع القيام بهذه المهمة. يصطاد اللصوص ويفضـح الزيـف والأكاذيـب، ويضيء المناطق المظلمة فى النفوس والمجتمعات. ويبقـى مع ذلك خيالا، أبعد من أن نمسك به، أو نشده بأوتـاد الـى زمان ومكان محددين، لأن من أهم عناصره، التى تدخل فى تشكيله وبنائه، تلك المادة الزئبقية التى تمنحه طبيعة مراوغة، وتجعله عصيا على الإمساك به، طافحا فوق الزمان والمكان، يخاطب أهل زمانه، بمثل ما يخاطب أزمنة اخرى وأجيـالا اخرى.

أقول : جاءت أغلب هذه القصـص معنيـة بـالهم السياسي، فالكاتب الذى يسـتقبل ضـيوفه الـوهميين مـن شخصيات الخيال التى تطرق بابه تبحث عن مؤلف تستخدمه فى صياغة أفكارها، سرعان ما يكتشف أن هذه الشخصيات كثيرة الإلحاح والعناد، وإنه لن يسـتطيع أن يردهـا ويقفـل

أمامها الباب، وببراءة استجبت لما تريده شخصيات الخيـال التى تتحرك وتتنفس وتتكلم عبر هذه القصص، واكتشفت أن بعض هذه الشخصيات كان حاد اللهجة، شديد الانفعال، يقول كلاما أشبه بقصائد الهجاء، والأكثر بؤسا وتعاسة أن كثيـرا من هذا الكلام جاء ينتقد ممارسات وسلوكيات الحكام، بحيث صرت أعاتب نفسى وألومها لأننى اسـتجبت لإلحـاح هـذه الشخصيات المليئة بالغضب والإحباط، قائلا لنفسـي، "أيـن تمضى أيها الصعلوك بين الملوك" ألا يكفى ما تصنعه مـن أعداء صغار بسبب ما تكتبه، حتى تصنع لنفسك أعداء مـن السلاطين.

المهم، وقعت الواقعة، وخرجت هذه الأقاصيص إلى النور، وصارت مثل الكائنات الحية التى ينجبهـا الأحيـاء، فتنفصل عنهم وتستقل بحياتها عن حياتهم، وتخرج عن مجال سيطرتهم، حتى وإن تحملوا أحيانا أوزارها وآثامها. اكتشفت أيضا أن كتابتى لهذه القصص، جاءت متزامنة مـع كتـابتى لقصص أخرى، جمعتها فى كتاب خاص بهـا هـو "مرايـا فينيسيا"، فى حين وضعت القصص السياسية فى هذا الكتاب، وأضفت إليها مجموعة القصص القصيرة جدا التى كتبتها فى

فترات متفاوتة وهى " الأطفال" و "تأشيرة دخول الى عـالم البراءة" و"ثلاث قصص من زمن الحرب" لأننى رغم مضى أعوام كثيرة على كتابتها لم أضمها إلى مجموعاتى القصصية وإن تسلل بعضها خطأ إلى كتب المقالات. وهكـذا أجريـت عملية فك ارتباط بين القصص السياسية وغير السياسية (هل هى حقا غير سياسية؟) لكـى لا تتحمـل الأخيـرة جريـرة الأولي.

ولكى لا أكون متناقضا مع نفسي، فأننى سأكتفى بإبداء هـذه الملاحظة التى قد لا تهم سوى الباحثين، لكى لا أفسد علـى القارئ فرصة أن يلتقى مع النص دون وسـاطة أو تفسـير، ملتزما بما ينصحنا به أحد أسـلافنا العظـام، أبـو حيـان التوحيدي، عندما يقول: " لا تفصح عما تكون الكتابة عنـه أفصح ".

**"المؤلف"**

# من مفكرة عاشق

في مكان ما

في مكان ما من هذه المدينة.٠... لي حبيبة

لكنها لا تعرفني لأنها لم ترني بعد

وأنا لا أعرفها لأنني لم أرها بعد

أنا على يقين كامل، بأنه في مكان ما من هذه المدينة

ثمة إنسانة تختزن في قلبها حبا عارما لي وأنا احتفظ لها في قلبي بمدائن حب

هي في وحدتها تناديني ولا أسمع

وأنا في البعد أناديها ولاتسمع

في مكان ما من هذه المدينة

في مكان ما من هذه المدينة !

لكنهم ضربوا من حولها سوراً ومنعـوا الشـمس أن ترى وجهها أبداً

وقطعوا على فرصة أن أكتشف من تكون؟

إذا فهي لن تراني ولن تعرفني

وسيبقى الحب متكلسا بداخلها وما لـن أرهـا ولـن أعرفها وسيتكلس في قلبي ما أحمله من حب

فى مكان ما من هذه المدينة
هذه المدينة هذه المدينة

**********

فوق الماء
لم أستغرب !
رأيت رجلا يسير فوق الماء مسرع الخطـى ولـم استغرب !
رأيته – متعجلا - يعبر الطريق إلى الشـاطئ ثـم يضع قدما ثابتة فوق الماء ويمشى بزهو فوق موج البحر ولم أستغرب قلت فى خاطرى
هذا يحدث عندما يكون للرجل موعد على الشـاطئ الآخر مع الأنثى التى يحب

**********

**الرجل المعجزة**

رأيته يقف وحيدا فى المعركة، تجمع عليه عشـرات منهم، لكنه بات يهزمهم جميعاً جميعاً!
جلافا، غلاظا كانوا وهـو فـى حجـم ذرة الغبـار لكـنهم يتساقطون كالذباب تحت ضرباته

تجمع الناس يشاهدون الرجل المعجزة باندهاش
لم اندهش
عرفت – من فورى – أن حبيبته تقف فى الشرفة المقابلة؟
**********

## كيف يبقى؟

أعرف إنسانا عاش عمره لم يعرف الحب
وعندما آفاق فى الصباح ذات يوم، وجد أن أسـنانه تحولت إلى أنياب، وأصابعه تحولت إلى مخالب، وغمر يديه وقدميه وأذنيه وأنفه وجبينه وقفاه شعر خشـن كثيـف ولـم أعجب
فكيف يبقى الإنسان إنساناً إذا لم يفتح قلبه للحب
**********

المغنى
يغنى للحب مغنياً
ويقول كلاماً عن حب يتواصل حتى أبد الدهر ذلـك أن مغنينا لا يعرف عاطفة الحب معرفة شخصية، إنه يقـرأ عنها فى كتب (الميثولوجي) إن كان يجيد قراءتها أو يسمعها خرافات من جدته وجارته.

لكن مغنيهم يعرف عاطفة الحب ويحياها

إنه أبدا لا يذكر شيئا عن حب يتواصل حتـى أبـد الدهر فهو يقول : (أحبينى الليلة)

مغنينا – فى جوعه – يحلم بالخبز معالف وشكائر فى عطشه يحلم بالماء بحيرات وأنهارا مغنيهم يجلس للمائدة

فلا يتناول من خبز الحب إلا رغيفاً واحدا لا يشرب من ماء الحب إلا كأساً واحدة

**********

الحب والقمر

لا أشك لحظة فى أن أول من فكـر فـى الصـعود بالإنسان إلى القمر كان عاشقاً

أراد أن يصل بتحديه فى الحب إلى القمـر فمضـى يخترع طريقة للذهاب إليه

**********

عنترة وعنترة

هل كان يمكن لعنترة أن يكون عنترة الذى عرفناه،لو لم تكن فى حياته عبلة

أراهن أنا أنه سيظل حتى يلقى ا ذلك العبد الـذى رضى بهوان العيش، ورعى الغنم، مقتنعا أنه لـم يخلـق إلا ليكون العبد والراعى

حتى جاء الحب

جاء وجه التى أحبها، فجر فى عروق العبـد نـبض الكبرياء، نزع الغطاء عن مارد البطولة فيه، فتح الأختام عن قوارير الشعر

فإذ بعنترة العبد والراعى

يصير – فجأة – عنترة الحرب والشعر، والحب

**********

سعادة العمر

مضى يحبها فى صمت

وهى من بعيد تحبه فى صمت !

كان يخشى أن يذهب إليها فترفضه

وكانت هى أكثر حياء من أن تذهب إليه ولم يلتقيا أبداً

ضاعت – عليها وعليه – سعادة العمر

**********

أمتع ذكرى

أجمل ما فى حكايات الحب أنها عندما تنتهى، فهى لا تنتهى أبداً إنها تمنح الميلاد لسعادة جديدة هى الذكرى افـتح صندوق ذكرياتك ولسوف تجـد أن أمتـع هـذه الـذكريات وأكثرها عذوبة هى ذكريات حب قديم

**********

لحظات

أتعس اللحظات فى الحب

أبهى من كل اللحظات بعيداً عنه

**********

كم  مضى من الوقت

ما هذا

أحسن بالوهن يعترينى !

بالتعب والإعياء يملآن كيانى

بشيء كأنه صقيع الشيخوخة يـدب فـى مفاصـلى بالحياة رتيبة، بطيئة، تمضى من حولى بعمرى وقـد صـار إناء مملوءا بالضجر

ما هذا يا إلهى؟

كم مضى من الوقت لم أحب؟

## من يخاف أجاثا كريستى

اخترت مكانا جيد الإضاءة، فى عمق الصالة، وجلست أقرأ قصة بوليسية مترجمة لأجاثا كريستى، أعبر بها الوقت الضائع، وألهث مع كلماتها ألاحق الجرائم التى يرتكبها مجرم مجهول، وأتحرق فضولا لمعرفة الفاعل. دون أن أنتبه إلى الرجل الذى جاء وجلس بجوارى على ذات الأريكة، برغم المقاعد الشاغرة الكثيرة التى تملأ صالة الفندق. فاجأنى وهو يحنى رأسه قريبا منى، يتأمل سطور الكتاب الذى أقرأه. رفعت رأسى أنظر إليه باستغراب، فابتسم دون إحساس بالحرج، ووضع عينيه فى الكتاب وهو يسألنى بلغة إنجليزية :

- تبدو لغة غريبة. هل هل السنسكريتية؟

- إنها العربية.

قلت ذلك بإهمال، ودون رغبة فى مواصلة الحديث، أو اهتمام بخطوط الدهشة التى ارتسمت فوق جبينه. دسست وجهى فى الكتاب أبحث عن السطر الذى توقفت عنده، بأمل أن يكون الرجل قد أرضى فضوله وقرر أن يتركنى مع كتابى. أحسست بأنفاسه قريبة منى وكتفه يزاحم كتفى، وقد

أحنى رأسه يتأمل الكتاب من جديد. وفى غيظ أقفلت صفحات الكتاب ونظرت نحوه باستنكار أسأله دون كلام أن ينصرف عنى، ولكن الرجل وضع على وجهه تلك الابتسامة التى لا معنى لها، قبل أن يقول :

- إذن فأنت عربى.

لا حول ولا قوة إلا با . إنه لا يريد أن يعتقنى. وعالم القصة المليء بجرائم القتل يجعلنى أكثر حذرا، ويجعل مزاجى أكثر حدة فى مواجهة المتطفلين من أمثاله، ولم يبق أمامى إلا أن أترك له هذه الصالة، وأبحث عن مكان آخر.

- نعم إننى عربى. وأنت؟

لا أدرى لماذا تورطت فى إبداء هذا السؤال الذى يفتح بابا للحديث لن أستطيع إغلاقه. ربما لأننى أردت أن أعرف إلى أى جنسية ينتمى هذا الحيوان الفضولى. ولماذا اصطفانى أنا بالذات لكى أكون أنيسه وجليسه هذه الليلة. قال ضاحكا :

- إننى خلاسى.

اكتفيت بهذه الكلمة التى لا تعنى شيئا سوى أنه إنسان منبت. لا أصل له ولا جذور. فشكله فعلا لا يوحى بأن له

انتماء لجنس بعينه. أومأت برأسى شاكرا. وكأننى أقول له بأن هذا كل ما أريد أن أعرفه. وعدت إلى الكتاب أفتحه وأفتش بين سطوره عن القاتل. أشعل هو لفافة تبغ ارتشف منها نفسا عميقا، ثم أطلق دخانها فى الهواء، فصرت أدفع عن نفسى سحب الدخان، وأضرب الهواء بيدى، فى تشنج وعصبية، فى حين واصل هو الحديث غير عابئ بما أبديه من ضيق ونفور.

- والدتى امرأة زنجية، نزحت من أفريقيا، وأبى مهاجر من أيرلندا، التقيا فى كوستاريكا عندما كانا يعملان فى مزارع التبغ. ولذلك فإن التبغ فى دمى. رضعته مع حليب أمى. هل لك فى سيجارة؟

- شكرا. لا أريد.

أنعم به من نسب، قلت فى خاطرى. لعله يكتفى بهذا القدر من الشرح، فأنا لا أملك وقتا أقضيه فى الاستماع إلى قصة حياته. المنقوعة فى أوحال مزارع التبغ. إننى أتعقب قاتلا شديد الدهاء، ولا بد أن أهتدى إليه بين هؤلاء المشبوهين الذين يملئون عالم القصة. وهذا السيد الكوستاريكى يجعل مهمتى الآن أكثر صعوبة.

- إننى كوستاريكى بحكم المولد فقط. فأنا دائم النزوح. هندوراس. بيرو. كولومبيا. بيرمودا. كلها بلادى بحكم الإقامة. فالنزوح جزء من طبيعتى. إنه الإرث الذى أحمله فى دمى.

يجب أن أعيد قراءة الصفحة من جديد، وإلا أضعت الخيوط التى ستقودنى إلى القاتل. لن أدع هذا الرجل الذى تربى فى مزارع التبغ، والذى يهوى تغيير الأوطان وتبديلها كما يفعل الناس مع جواربهم، يمنعنى من متعة البحث عن القاتل واكتشافه. لقد وضعت الكاتبة فى طريقى، رجلا شقيا، يدمن المخدرات، ويعمل وسيطا بين البغايا وزبائن المتعة، لتوهمنى بأنه القاتل فى حين أن القاتل الحقيقى، لن يكون غير ذلك المحسن الكبير الذى ينشئ المستشفيات ويتبرع بماله لملاجئ الأيتام. إنه مجرد حدس، فأنا مازلت أحتاج إلى مزيد من القرائن حتى أصدر حكما قاطعا بإدانته.

- جئت إلى مالطا فى شأن من شئون الجمعية الخيرية التى أتشرف بعضويتها.

جمعية تهتم بضحايا أمراض الوحدة والكآبة، وترعاها الكنيسة الكاثوليكية، سننشئ فرعا هنا..

امتلأ رأسى بصليل أجراس الحرائق، ووقع حوافر الخيول التى يركبها فرسان القديس يوحنا فى غزواتهم. ها هم رجال الخير والتقوى، يهيمنون على فضاء القصص البوليسية بمثل ما يزاحموننى فى قاعات فنادق الدرجة الأولى. لقد رآنى الرجل أجلس وحيدا. زاهدا فى الحياة الليلية الصاخبة التى تضج بها هذه الجزيرة، فظن بأخلاقيات فارس من القرون الوسطى، أننى من ضحايا أمراض الكآبة الذين يحتاجون لرعاية جمعيته الخيرية. ولكننى على يقين من أن الذى استدعاه إلى مجلسى، ليس إلا شخصيات هذه الرواية، التى أعجبها التماثل بينها وبين مناقب هذا الرجل، فاستخدمت سلطة الخيال، تسيطر بها على واقعى، وتجيء بهذا الرجل من أقصى بقاع الأرض، وتهبط به على مقعدى. كان قد أطفأ لفافته فارتاحت أعصابى قليلا. تأملته وهو ما يزال يرتدى قناعه الباسم، أحاول أن أهتدى إلى القواسم المشتركة بينه وبين شخصيات الرواية. على مشارف الستين، بني البشرة، له ملامح دقيقة أكسبتها سنوات العمر المتقدم رقة ورهافة، ومنحتها مسحة من الألفة والمودة. يرتدى سترة أنيقة بيضاء، وقميصا مزركشا، ينبئ بشباب القلب، ويضع

فى يده ساعة تشع بلون الذهب، دليل البسطة والرخاء. لو قابلته فى وقت غير هذا الوقت، وبعيدا عن هذه القصة البوليسية التى تملأ رأسى بالخيالات المفزعة، لأعجبنى مظهره الوديع، وارتحت لصحبته.

- أسمى البرتو.

مد يده لمصافحتى. وضعت يدى فى يده وسحبتها دون أن أذكر له اسمى. فقد قررت أن أترك له المكان، وأنتقل مع كتابى إلى مكان آخر. وقبل أن أنهض من مقعدى، جاءت هى راكضة، تخفق بذراعيها العاريتين، وصدرها النافر الراقص. ترتدى قميصا صيفيا وبنطلونا من نوع الجينز. حسبتها ابنته، ولكنه قدمها لى قائلا.

- روزيتا. زوجتى. إنها خلاسية مثلى.

كان ما رأيته شيئا لا ينتمى إلا لعالم جميل مدهش، أكثر بهجة من عالمنا. عالم اختفى منه اللصوص والقتلة، كما اختفت منه أمراض الوحدة والكآبة. وما هذه الابتسامة التى تحمل وعدا وبشارة وفرحا، وهاتان العينان النجلاوان اللتان تملآن نصف الوجه، وترسلان إشعاعا ينفذ إلى القلب إلا علامة على ميلاد هذا العالم الجديد الجميل. جلست ذاهلا

أعاق بصرى بها، وأذوب فى سحر حضورها. الجسد تمثال للأنوثة فى مجد زهوها وتفجرها. والوجه مرسوم بريشة مغموسة فى ألوان الأفق ساعة انبلاج الصبح يتوهج ويضئ، وكأن هذه المرأة قد هبطت لتوها من مراكب الشمس. أهملت الكتاب بعوالمه السوداء التى تتعامل مع أكثر المناطق إظلاما فى النفس البشرية، وصرت ألوم نفسى لأننى جعلت هذا الكتاب مرجعا ودليلا أهتدى به لمعرفة البشر الذين حولى. تفتحت مشاعرى مثل زهرة عباد شمس عندما تسقط عليها أشعة الكوكب الذى يضيء الكون، وامتزجت فرحتى بشيء من الأسى وأنا أسأل نفسى، لماذا يكون حظى دائما على هذا النحو المحزن؟ لماذا لا ألتقى بالمرأة التى تشعل الحرائق فى دمى، إلا وهى بصحبة رجال آخرين سبقونى إليها، وجاءوا يصنعون سدا بينى وبينها. احتلت هى كرسيا شاغرا قبالتنا ومضت تحدث زوجها عن متجر التحف الملحق بالفندق، وتدعوه لأن يأتى معها، لعلهما يجدان شيئا يشتريانه للذكرى. أقنعها بأن تذهب إلى المتجر بمفردها بحجة أنه مشغول بالحديث معى، وخاطبنى بعد ذهابها قائلا.

- إننا زوجان دون زواج. أى دون عقود رسمية واحتفالات كنائسية.

لا شك أنك تعرف شيئا عن تزمت الكنيسة الكاثوليكية. ولذلك فقد فارقت زوجتى الأولى دون طلاق، وتزوجت روزيتا دون زواج. إننا سعداء بهذا الترتيب الجميل.

لا أدرى لماذا أحسست بشيء من الارتياح عندما قال هذا الكلام، وكأن مرافقته لها دون زواج تزيح قيدا أخلاقيا وتحررنى من الحرج الذى أحس به وأنا أرى قلبى يشرد وراء امرأة متزوجة.

- لم أتشرف بالاسم الكريم.

- سامى.

قلت الاسم دون تردد هذه المرة، ولكن بعد أن حرفت إسماعيل إلى سامى.

- إنه اسم يسهل نطقه، سامي، سنكون أصدقاء.

لم أقل له إننى مسافر غدا. وأن وجودى فى مالطا لم يكن إلا نتيجة سبب طارئ فقد تأخرت الطائرة التى أقلتنى إلى مطار هذه الجزيرة عن ميعاد إقلاع طائرة أخرى كانت

ستقلنى إلى مدينتى. فأسكنتنى شركة الطيران فى هذا الفندق ذى النجوم الخمس، الذى ما كنت أحلم بأن أكون نزيلا من نزلائه فى يوم من الأيام. ولأننى كنت معدما، لا أملك نقودا ارتاد بها الملاهى، فقد جلست بعد أن تسكعت قليلا فى الشوارع، فى هذه القاعة أحارب الفراغ بقراءة هذه القصة البوليسية.

كنت مازلت متحرجا من سؤاله عن السبب الذى جعله يترك المقاعد الأخرى، ويختار الجلوس بجوارى. ولكنه أغنانى عن السؤال، عندما قال وكأنه يقرأ أفكاري :

- لعلك تستغرب لماذا جئت وجلست بجوارك. كان منظرك غريبا، وأنت تجلس بمفردك فى هذا الفندق الفاخر، الذى يمتلئ بالملاهى وصالات الرقص والقمار، تقرأ كتابا. السائح لا يأتى إلى مالطا ليفعل ذلك. لأن بإمكانه أن يبقى فى بيته إذا أراد أن يقرأ الكتب. ظننتك تنتظر صديقا. ولكننى عندما تركت الفندق وعدت بعد أكثر من ساعة لأجدك ما تزال تقرأ هذا الكتاب، أدركت على الفور أنك رجل نادر. رجل استثنائى، استطاع أن ينجو بنفسه من سباق الفئران، ويحتفظ بشخصيته المتميزة التى تتنزه عن تقليد ومجاراة

الآخرين. تذكرت على الفور القديس أوغسطين. العمل الطويل بجمعيتنا، جعلنى أملك بصيرة أهتدى بها إلى البشر المتفردين، الذين يعيشون فى عالمهم الخاص المليء بالثراء الروحى. فأحببت أن أتعرف إليك.

شكرته على هذه البصيرة النافذة التى تملك القدرة على التواصل مع القديسين واحتسابى واحدا منهم. ولكن لماذا تراه اقتحم هذا العالم الخاص الذى رآنى مستمتعا به؟ هل أقول له إن العالم الذى ظنه عالما فريدا روحانيا، لم يكن إلا عالم الجيوب الفارغة الذى دعانى لأن أسجن نفسى فى هذه القاعة، وأبقى بصحبة القتلة والمجرمين الذين يمتلئ بهم عالم أجاثا كريستى. وإننى ما كنت لأعبأ به أو بما يقوله من شفافية بصيرته لولا هذه الأنثى المحملة بعواصف وبراكين جبال الأنديز، وتوحش غابات الأمازون، التى جاءت منها، والتى أرغمتنى على أن أتخلى عن عالمى الخاص وأسعى للاحتراق داخل عوالمها. تأكد لى أنه قادر على قراءة الأفكار، عندما قال :

- ما رأيك فى روزيتا. لا تقل إنها لم تفتنك بجمالها. لأن هذا ما تفعله مع كل الناس. جميعهم يسقطون ضحايا

حبها منذ أول نظرة. أليس هذا ما حدث لك أنت أيضا. ماذا بإمكانى أن أقول، لقد عبر عن مشاعرى بأكثر مما أستطيع البوح به. فأنا لست إلا واحدا من ضحاياها، دون ريب. وبما أنه ألبسنى مسوح القديس أوغسطين، فإن اعترافاتى لا يجب أن تكون أقل صراحة من اعترافاته. قلت له :

- نعم. هذا ما حدث معى. ويجب أن تعذرنى فى ذلك. لأن لها جمالا يستحق العبادة.

ثم وضعت يدى على كتفه، وكأننى أطلب منه الصفح على ما بدر منى، قائلا له :

- إنك رجل محظوظ، محظوظ جدا يا صديقى، لأن الآلهة أكرمتك بها دون غيرك.

ولا أدرى ماذا أصابنى، فبقيت ذاهلا صامتا، أنظر فى الفراغ ولا أبدى أية حركة عندما سمعته يقول، دون تمهيد أو إنذار :

- ألا تحب أن تستضيفها هذه الليلة فى فراشك.

كانت هذه الجملة صفعة قوية، هبطت على وجهى، فجعلتنى غافلا عن الدنيا لدقيقة أو أكثر. لم أستطع أن أصدق أن هذه المرأة، سلعة للبيع والشراء، وأن هذا الرجل تاجر،

يبيع فتنتها وجمالها لزبائن الفنادق الراقية. كان كتاب أجاثا كريستى، مازال بين يدى، وسطوره التى تحكى عن سماسرة الجنس، تضغط الآن على ذاكرتى، وكأنها تشير إلى هذا التوافق الغريب بين ما يحدث فى الكتاب، وما يحدث الآن.

ماذا أستطيع أن أقول له الآن؟ لم يكن جلوسه بجوارى إذن إلا جزءا من الخطة التى أعدها لاصطيادى، ولم يكن حديثه عن الكنائس والقديسين والجمعيات الخيرية إلا غلافا جميلا، يغلف به نفسه، حتى يجعل الناس يأنسون إليه، قبل أن يكشف لهم هويته الحقيقية. لا شك أنه كان يعرف أننى عربى، واحتسبنى من أثرياء العرب عندما رآنى أقطن فندقا من فنادق الدرجة الأولى. لا بد أن تجاربه علمته أن العرب أكثر كرما عندما يتعلق الأمر بامرأة لها مؤهلات روزيتا.

كنت قد استعدت توازنى بعد الصدمة التى أحدثها عرضه الفاخر.

- وما هو الثمن الذى تريده مقابل ذلك؟

أردت منذ البداية أن أستخدم لغة تتفق وقواعد المهنة التى يقوم بها.

- كل ما نريده هو إسعادك.

هذا ما يقوله أرباب الابتزاز فى كل أنحاء الدنيا. يمتنعون عن تسمية الثمن بحجة أنه لا غرض لهم سوى إسعادك. ليتنى أستطيع أن أتظاهر بالغباء، وأصدق أنه آثرنى بهذه الهدية الباذخة، نتيجة إعجابه بى، ورغبته فى إسعاد رجل يعانى الوحدة والكآبة مثلى، فأمضى بها إلى غرفتى، وأستضيفها فى فراشى، دون أن يطالبنى أحد بدفع الثمن.

كانت روزيتا قد عادت فى هذه اللحظة، وفى يدها قلادة من الخرز الأزرق، تبدى إعجابها بها، وتسأل زوجها الوهمى عن رأيه فيها. أخذ منها القلادة يقلبها أمام عينيه، ويطرى روزيتا على ذوقها ثم أضاف وهو يلتفت نحوى.

- روزيتا تؤمن بالحظ، وتعتقد أن الخرز الأزرق يجلب الفأل الحسن.

أعاد إليها القلادة قائلا :

- صديقنا سامى معجب بك. ويريد أن يقضى هذه الليلة فى صحبتك، فما رأيك؟

- الرأى رأيك يا عزيزى.

- إنه يسأل عن الثمن، فأخبرته أن الحب لا ثمن له، لأن المسألة ليست بيعا وشراء.

ابتسمت المرأة فى دلال، قبل أن تقول :

- نعم يا عزيزى البرتو. فالدنيا كلها لاتساوى شيئا بغير الحب.

ثم أضافت وهى ترفع بصرها نحوى.

- إنه يروق لى. فهو إنسان لطيف، يحب قراءة الكتب. انظر إليه. إنه مازال ممسكا بالكتاب، ويضع أصبعه بين الصفحات، يخشى أن يضيع منه السطر الأخير الذى توقف عنده.

مد البرتو يده يأخذ منى الكتاب.

- هل رأيت. إن روزيتا تحبك، وتغار عليك من هذا الكتاب. دعنا نطوى هذه الصفحة هكذا. يمكنك أن تعود إليه غدا.

طوى الصفحة وأعاد لى الكتاب قائلا :

- لم يعد لى مكان بينكما. سأذهب إلى غرفتى الآن، وأراكما غدا. حظا سعيدا لكما.

ذهب البرتو وتركنى وحدى فى مواجهة هذه المرأة الخلاسية القادمة من جبال الإنديز. لم يكن ممكنا لهذا الجمال الباهر، هذه المائدة الإلهية العامرة بأصناف اللذة والفرح أن تبقى احتكارا لرجل واحد فى الدنيا. خاصة إذا كان هذا الرجل معنيا، مثل البرتو، بهموم البشر المصابين بأمراض الوحدة والاكتئاب من أمثالى. فهو يعرف أن علاجا كهذا سوف يضمن لهم الشفاء العاجل الناجع. أردت أن أسأل روزيتا عن سر علاقتها بهذا الرجل الذى يتعيش من بيع لحمها فى الأسواق، ولكننى وجدته سؤالا مجانيا، لن يضيف لى معرفة جديدة، وقد يسبب كدرا لها. فهذه هى قواعد السوق. لقد أدى السمسار مهمته، وسوف ينال ثوابه بعد انتهاء الصفقة، ولم يبق أمامى إلا أن أعرف الثمن، حتى أنسحب بكرامتى، وكأن انسحابى جاء اعتراضا على مبدأ الاستغلال وليس عجزا عن دفع الثمن. وقبل أن أبادرها بالسؤال، تطوعت هى بالإجابة قائلة فى جمل بطيئة، تفصل بينها لحظات صمت تأمل ومداعبة عصبية للخرز الأزرق، إمعانا فى الحبكة وإتقان الدور.

- البيرتو توسم فيك الشهامة منذ أن عرف أنك عربى.

إذن فقد صدق حدسى، إنه لم يأت للجلوس بجوارى إلا بعد أن أكمل تحرياته عنى. توقفت روزيتا قليلا عن الحديث، وهى ترفع أهدابها الغزيرة نحوى وتضع عينيها الكبيرتين المضيئتين مباشرة فى عينى. لم تكن تحتاج لأن تستخدم معى كل هذه الأسلحة، فأنا منذ أن رأيتها أعلنت استسلامى، ورفعت أمامها الرايات البيضاء دليل عجزى وهزيمتى.

- وأدرك أنك أنت الذى ستنقذنا من ورطتنا.

نعم. نعم. هكذا تبدأ القصص الجميلة التى يحكيها الشطار من أهل الحيلة والخداع. أراهن أنها ستتحدث عن النقود التى سرقها اللصوص، أو استولى عليها أصحاب موائد القمار، الذين يبتزون براءة الزبائن الذين يأتون للفرجة والتسلية.

- لقد سهرنا البارحة فى صالة القمار بهذا الفندق، ودون أن ندرى وجدنا أنفسنا نخسر كل ما معنا من نقود. قد

لا تصدق أنه لم يبق بحوزتنا ما ندفع به ثمن إقامتنا فى الفندق التى استمرت أكثر من أسبوعين.

ها هى تؤكد حدسى مرة أخرى. إننى واثق من أنها تعرف، أننى أنا أيضا أعرف أن ما تقوله ليس إلا حكاية ملفقة. ولكن الثمن الكبير الذى تطلبه فى حاجة هو الآخر إلى غلاف من الخيال الجميل الذى يزيل عنه الفجاجة والسوقية.

أعجبتنى قدرتها على تلفيق هذه الحكاية، وتأسفت فى خاطرى لأننى لم أكن أملك مالاً ينقذها من ورطتها الوهمية ويشترى لى ليلة حب معها. تذكرت أننى لست ضحية لخداعهما فأنا الذى خدعتهما بوجودى فى هذا الفندق ذى النجوم الخمس، حتى ذهب فى ظنهما أننى من الأثرياء القادرين على شراء هذه الموائد الإلهية. ولذلك سأواصل لعبة الخداع، وسألعبها مع نفسى هذه المرة، سأحارب فورة الدم فى عروقى التى تطالب بلحظة اشتباك مع دمها وعروقها. سأدعى أمام نفسى بأننى أعافها ولا أريد معاشرتها، لأنها امرأة سوقية تبيع نفسها فى أسواق اللحم البشرى، أعرف أننى أكذب على نفسى، وأن اشتهائى لها الذى لم يتحقق هذه الليلة، سيترك حسرة لن تنطفئ فى قلبى. وسأستخدم أجاثا

كريستى وعالمها المليء بالمجرمين فى لعبة الخداع هذه. سأفتح الكتاب الآن وسأبحث عن الصفحة التى توقفت عندها لأوهمها بأننى زاهد فى إتمام الصفقة معها. رأيتها تنظر نحوى باستغراب، وأنا أفتح الكتاب، فقلت باسما :

- إنها قصة بوليسية مثيرة

اكفهر وجهها وتشنجت أصابعها وهى تمسك بالخرز الأزرق، وسألتنى بانفعال :

- ماذا قلت؟

- قلت لك إنها قصة لأجاثا كريستى عامرة بالغموض والإثارة.

- أعنى ما قولك فيما أخبرتك به.

- إنها فعلا ورطة. أتمنى صادقا لو أقدر على المساعدة، ولكن...

- ولكن ماذا؟ ألم تقل إنك تريد أن تقضى وقتا معى.

- أتمنى أن أكون عريسك ولو لساعة واحدة، ولكننى أحتاج إلى عام كامل حتى أستطيع توفير المهر الذى تطلبينه.

- الذنب ليس ذنبك. إنه ذنب البرتو الذى يضعنى دائما فى مثل هذه المواقف اللعينة.

ثم أضافت وهى تنهض غاضبة :

- سهرة ممتعة بصحبة أجاثا كريستى.

وبخطى سريعة غادرت القاعة. ذهبت روزيتا، تحمل معها عبير أنوثتها، وضوء ابتسامتها، وبقيت وحدى مع أجاثا كريستى وعوالمها السوداء المليئة بجرائم القتل الغامضة.

## موعد تحت برج الساعة

مضت نصف ساعة وأنا أنتظرها. أسند ظهرى الى جدار برج الساعة، وأرقب مداخل الميدان، أعلق بصرى بأطياف النساء القادمات إليه، بحثا عنها، وأتسلى أحيانا بإحصاء عدد النساء والرجال الذين تواعدوا على اللقاء تحت البرج. الذين يأتون فلا يدوم انتظارهم سوى دقيقتين أو ثلاث. يلتقون بعدها بأحبابهم، ويذهبون ضاحكين متعانقين، وأنا باق، أستقبلهم وأودعهم، كما يفعل هذا البرج، دون أن أدرى لماذا أواصل انتظارا عقيما لا معنى له، وأبنى أبراجا من الأحلام، نتيجة موعد أعرف منذ البداية أنه لم يكن إلا عبثا. امرأة ألتقى بها على ناصية الطريق، فيبهرنى جمال عينيها، وأستوقفها لأتسول منها موعدا، فتهز رأسها بالموافقة وتمضي. امرأة لا أعرف اسمها، ولا تعرف اسمي، ولم تمكث معى وقتا يكفى لأن تتذكر ملامح وجهي، كيف أوهم نفسى بأن لى موعدا معها. وأقف كل هذه المدة، أنتظر أن تأتى راكضة نحوي، تغمرنى بعبق أنوثتها، وتمنحنى نصيبا من عطرها، وتفسح لى مكانا فى دائرة الضوء التى يصنعها

جمالها، وتترك ما لديها من ارتباطات وعلاقات لتصطفينى ضيفا على موائد حبها. إن هذا لا يحدث إلا فى الخراريف.

يجب أن أترك هذا الانتظار الذى لا معنى له ـ قلت فى نفسى ـ وأمضى للاعتناء بشئونى الأخرى. ولكن أية شئون تنتظرني، فى مدينة أجنبية جئتها منذ شهر مضى ولا أعرف من أهلها إلا أرملة عجوز هى مسز كين التى أسكن فى بيتها، برفقة ابنها وكلبها. ثم عدد من الطلاب الأجانب الذين يدرسون اللغة الإنجليزية مثلي، والذين لا ألتقى بهم خارج أوقات الدراسة إلا بمواعيد مسبقة. لقد تركت هذا اليوم مفتوحا، دون ارتباط مع أحد من زملاء المدرسة، لأننى أوهمت نفسى بأننى أملك موعدا سوف يملأ بالحب نهارى وليلي.

يستوى الآن أن أبقى هنا، أو أذهب لأتسكع دون هدف فوق أرصفة الشوارع. ربما يكون البقاء هنا أكثر تسلية، فقلب الميدان أكثر أهمية من أطرافه وشوارعه الخلفية، ومراقبة العشاق الذين يلتقون تحت هذه الساعة، لا يخلو هو أيضا من متعة ثم لماذا أتخلى عن موعد لم أحصل عليه إلا بالعناء والمكابدة. مهما كان موعدا كاذبا زائفا، فهو

موعد مع امرأة جميلة، أتحرق شوقا لأن أضع ساعدى حول خصرها، وأغسل وجهى بجدائل شعرها، وأعبر ليلة المدينة وسط قارب يتهادى فوق أمواج حبها. ما ضر أن أعانى قليلا من أجلها وأعرف الشوق، وأذوق الصبابة، متمثلا ما يقوله الشعر العربى عن الشوق الذى لا يعرفه إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها، أو أهل الغناء الشعبى عندما يقولون إن الحب من غير أمل، أسمى معانى الغرام. لماذا أترك هذا السمو، وأتنازل عن نصيبى من الصبابة، وأخذل شعراء الحب. لقد قضيت شهرا كاملا أرتاد الحانات والمنتديات، بحثا عن امرأة أواعدها، فلم أفز إلا بهذا الوعد من هذه المرأة. سألت نساء كثيرات، ولكننى سألتهن بأسلوب لا يتيح لهن فرصة للتعاطف معى أو الاستجابة لطلبي. ومتلعثما، مرتبكا، متردد الخطى، أقترب منهن، وأقول نصف الجملة، ثم أبلع ريقي، وأعالج جفاف حلقي، وأمسح عرقا تصبب فوق جبيني، وأقول نصف الجملة الثاني، وقبل أن أنتهى من المقدمات، تكون المرأة قد انصرفت عني، وهى ترمقنى بنظرة استغراب. كنت أريد أن اصرخ فيهن، بأننى لست مريضا أو مخبولا، وأننى أحمل فى قلبى مخزونا من الحب

تراكم لمدة ثلاثين عاما، ما جئت هنا إلا لكى أبذله عطاء سمحا كريما، لأول امرأة تمنحنى موعدا. ولكن من أين لهؤلاء النسوة أن يعرفن، إننى جئت من بيئة صحراوية، جعلت رسالتها فى الحياة هى الفصل بين النساء والرجال. وإننى لم ألتق، طوال حياتي، بالمرأة خارج إطار العائلة إلا إذا كانت طيفا على الشاشة، أو صورة على أغلفة المجلات.

ولا أدرى كيف صبرت هذه المرأة على حديثي، وكيف هزت رأسها بالموافقة دون أن تفزعها طريقتى فى الكلام. رأيتها تقف أمام نافذة متجر يبيع ألعاب الأطفال. كان هناك قرد يضرب الطبل، وراقصة إسبانية، ترفع طرف ثوبها وتعرى نصف ساقها، وتدور حول نفسها، فوق صندوق يعزف الموسيقي. وقطار كثير الألوان، خاليا من الركاب، يدور فوق القضبان دون محطة يقف عندها. وكانت هى تتابع هذا العرض وقد غمر وجهها فرح طفولي.

استوقفنى منظرها، وحيدة أمام الدكان، وأعجبنى جمال وجهها الذى أضفى عليه المرح مسحة من الألفة والحنان. فوقفت بجوارها أشاركها متعة المشاهدة راجيا أن أجد الشجاعة لأبدأ الحديث معها. اقتضانى الأمر جهدا هائلا

حتى استطعت أن أفتح فمى بالكلام، وعندما تكلمت لم أجد ما أقوله سوى أن أسألها عن الساعة. عدت لاستخدام تلك الحيلة الساذجة المستهلكة التى لم يعد أحد يصدقها. ابتسمت المرأة، وهى تشير إلى ساعتى التى نسيت أن أخفيها تحت كم قميصي، وتسألنى لماذا لا أستشير هذه الساعة بدلا منها. اعترفت لها بقلة حيلتي، وعجزى عن اختراع ذريعة أخرى تتيح لى أن أكلمها، لان كل ما أردته هو أن أمد خيطا من الود بينى وبينها. وسألتها دون إبطاء، وقبل أن تبدى استغرابها لهذا الغريب الذى يحمل فى يده أنوال الود يرميها فوق الناس، بأننى سأنتظرها غدا تحت برج الساعة عند الساعة الخامسة. هزت رأسها بالموافقة، ومضت دون أن تلتفت وراءها.

كيف إذن أترك موعدا انتزعته انتزاعا بالكد ومغالبة الحرج والقفز فوق أسلاك شائكة زرعتها فى روحى تعاليم الصحراء. كيف أتخلى عن هذا المهرجان الخطابى الاحتفالى الذى اعددته لاستقبالها ورصعته بكل ما وعته الذاكرة من أشعار المحبين واقوالهم.

ثم ماذا عن ذلك الفيض الغامر، من العواطف المحبوسة خلف أضلع الصدر والذى تلقى الإشارة بأن أيام حبسه قد انتهت، ولا يمكن أن يبقى ساكنا كما كان.

سأواصل الانتظار. وإذا لم تأت اليوم، فسأغالط نفسي، وأقول بأن موعدى معها لم يكن اليوم وإنما غدا.

لم أترك شيئا خلفى عندما جئت إلى هذه البلاد، سوى الفراغ وصحراء المدن والعلاقات، ولا شيء أمامى سوى البحث عن حب يملأ فراغ هذه اللحظات التى أعيشها فى مدينة لا تعرفنى ولا أعرفها.

سوف أبحث عن هذا الحب حتى ألقاه. سوف ادخل زحام المقاهى والحانات وأقف على أرصفة المحطات، وأطوف المتاجر، أتسول موعدا من البائعات، وأقف فى الطوابير الطويلة تحت المطر، أفتش عن امرأة تحبني، بين رواد المسارح ودور العرض. سوف أهمس لكل واحدة ألتقى بها. بأن موعدنا غدا تحت برج الساعة، ما بين الخامسة والعاشرة. سأمنحها فسحة كبيرة من الوقت، لكى تحدد الساعة التى تختارها، وستجدنى واقفا هنا بانتظارها، لا يفارقنى الأمل، بأنه ذات مساء، سوف أسمع دقات مرحة،

تصدر عن هذه الساعة، وتعلن عن مجيء المرأة التى تطفئ عطش القلب. قد لا تأتى فى اليوم الأول، أو الثاني، أو العاشر، ولكنها ستأتى فى اليوم العشرين، أو الثلاثين، أو الستين، أو المائة. حتما ستأتي، لتجدنى تحت هذا البرج، وصحبة هذه الساعة، أشرع أبواب قلبى لاحتضانها.

دارت عقارب ساعة البرج دورة كاملة، وانطلقت دقاتها تعلن السادسة. مضت الآن ساعة كاملة على الموعد الذى حددناه. وأنا صامد، لا أبرح مكاني، ولن أبرحه، مهما واصلت هذه الساعة إطلاق دقاتها الموحشة الكئيبة. لم يعد هناك الآن، أى احتمال لمجيئها، وسحب الضيق التى أطبقت على صدري، تنشر الآن ظلا كئيبا فوق هذه الأبنية والقباب التى حولي، فاراها وقد غادرتها البهجة، التى غادرت روحى وقلبي. وأرى نفسى وحيدا، تائها، وسط حدائق الحب، وبين هؤلاء العشاق الذين يأتون ويذهبون، وما أكثرهم. لا أدرى إن كنت قد أحصيتهم كلهم لعلهم مائة او اكثر، جاءوا وذهبوا، فأنا أغفل أحيانا عن أداء هذه المهمة التى صارت وسيلتى الوحيدة لمحاربة الضجر.

كنت قد بدأت التفكير فى لعبة جديدة، وهى أن أجرب حظى مع هؤلاء النسوة اللاتى يأتين للانتظار، ولكن قبل أن أعثر على جملة أقولها، أجد أن الرجل الذى واعدها قد وصل، ليرشق ذراعه فى ذراعها، ويأخذها بعيدا عني.

لا بأس من محاولة أخري.

وهاهى صبية عفية، عامرة بالوعود الجميلة، تأتى بمفردها، وتقف تحت البرج، تنظر فى ساعتها، لان القلق يساورها، خوفا من أن يتأخر صاحبها سأبتهل إلى ا أن يصنع له عائقا يمنعه من المجيء، لأقدم لها نفسي، كبديل لهذا الرجل الخائن الذى تخلى عنها. ولكن ا لا يأبه لدعاء الحاقدين الموتورين من أمثالي، لأنه ما إن أكملت دعائي، حتى جاءها صاحبها راكضا، يعانقها ويعاتبها لأنها وصلت قبله، وحرمته من متعة انتظارها.

ها هو يرى الانتظار شيئا ممتعا. ماذا أقول أنا إذن. يجب أن أحسد نفسى لأن انتظارى قارب الساعتين. بل هما ساعتان بالضبط. كما تقول هذه الساعة، التى أبت إلا أن تناكفني، وتطلق دقاتها اللعينة التى أحس بها كالطعنات فى صدري. إنها الآن السابعة. فهل سأنتظر أكثر من هذا

الانتظار؟ ولكن من قال إننى أنتظر. إننى لم أعد أنتظر احدا. أنا هنا أتفرج وأتعلم وأشاهد صورا من الحياة لا عهد لى بها من قبل. ها هى امرأة تعانق امرأة أخرى عناق العشاق. ورجل يضع فوق وجهه مكياج النساء يلتقى بمثيله. سأكذب على نفسى إذا لم أعترف بيأسى وضجري. لقد جئت إلى هنا محمولا فوق أمواج الفرح، سعيدا لأننى أملك موعدا مع امرأة تتألق كمصابيح الأعراس، وتصنع أعراسا فى قلبي. كنت أعرف عندما فارقتها بالأمس، أن ما حدث بيننا لم يكن موعدا. وعدت إلى بيتى وقد قررت أن أنسى تلك الاشارة التى أمنت بها على كلامي، والتى لم تكن سوى أسلوبا لبقا تتخلص به مني. ولكن ما حدث بعد ذلك هو الذى أكد لى جدية الموعد. وأنبت فى ذهنى يقينا جازما بأنها قادمة للقائى تحت هذا البرج. فقد رأيتها تظهر لى فى أحلامي، بقامتها السامقة وعينيها المليئتين بالنزق الطفولي، ورأيت نفسى أتنقل معها فى سياحات عبر الفصول، أضع يدى فى يدها، وأركض معها بملابس البحر، فوق شاطئ مهجور، وأقطف لها وردا فى حديقة القصر وهى تخطر بجوارى فى ثياب الأميرات، وأنتقل معها إلى غرفة واسعة، عارية الجدران،

خالية من الأثاث، سوى قطعة فراء افترشناها، وموقد نار يدفئ لنا الغرفة ويضيء العتمة، وسط هدير العاصفة والعزف العنيف لأمطار الشتاء خارج الغرفة.

وصحوت من نومي، وكأن ما حدث معى فى الحلم، لم يكن إلا واقعا عشته معها، أتاح لى أن أعرفها وتعرفني، وربط بين مصيرها ومصيري. وجئت الى هذا الميدان، واثقا من أن هذه المرأة، لن يكون شأنها شأن أية امرأة طارئة عارضه، ألتقى بها، فتمنحنى موعدا كاذبا وتمضي. إن هذه المرأة هى حصتي التى طال انتظارى لها من نساء العالم.

تناهت إلى سمعى دقات الساعة مرة أخرى. هل هى حقا الثامنة الآن. ولكن متى كانت هذه الدقات تعنى لى شيئا. لقد فقدت كل إحساس بالزمن. ورغم أن الانتظار جدير بأن يطيل الوقت، إلا أن حالتى لا تشبه حالات الانتظار الأخرى. إذ ليس هناك انتظار بلا أمل. فالانتظار هو الأمل. وأنا هنا لا أربط الانتظار إلا باليأس. أجعل الانتظار يأسا. وهذه هى الإضافة الصغيرة التى أضيفها اليوم للتجربة الإنسانية لتدق الساعة الثامنة، أو التاسعة، أو العاشرة. فسأظل أطفو فوق الزمن ولا أعيره انتباها.

سأقضى سهرتى هذه الليلة هنا، لأنه لا مكان آخر، يعدنى بمتعة أكبر، يمكن أن أذهب إليه.

وفجأة، ومن حيث لا أدرى ولا أحتسب، ولا أجد له تبريرا أو تفسيرا، سوى أن كائنا ملائكيا حنونا، يحب البشر الذين يقفون تحت الأبراج، كان يراقبنى وأشفق على هوانى وضعفي، فقرر أن يبدل كآبتى فرحا. فجأة اكتشفت، وأنا أرفع رأسي، فى اتجاه امرأة تدخل الميدان، بأن هذه المرأة ليست إلا تلك الأنثى الباهرة التى ضربت لى موعدا. كان شعرها الكستنائى قد تهدل أمامها، وغطى نصف وجهها فمدت يدها ترفعه عن عينيها النجلاوين، وقد وقفت تتفحص بهما جمع الواقفين تحت البرج، تبحث عني. قفزت نحوها وأنا لا أكاد أصدق نفسي، ووضعت يدى فى يدها قائلا بأنفاس لاهثة.

- هأنت تجيئين أخيرا، فشكرا للسماء.

قالت وهى تنظر فى ساعتها.

- أرجو أن أكون قد جئت فى موعدي.

نعم، نعم، قلت لها فى خاطري. إن كل المواعيد باطلة، وكل الأوقات أوقات عاطلة ضائعة، ماعدا الوقت

الذى تجيئين فيه، والموعد الذى تختارينه لحضورك المبهر الجميل.

كدت أرفعها بين ذراعي، وأرقص بها رقصا جنونيا وسط هذا الميدان، تعبيرا عن عواصف الفرح التى تضرب قلبي.

كان شيئا أبعد من أى مبرر عقلي، أن تأتى بعد مضى ثلاث ساعات على موعدها، ثم تلقانى واقفا أنتظرها.

لقد تحققت المعجزة التى كنت أترقبها، وجاءت المرأة التى رأيتها فى أحلامي. جاءت فى الموعد الذى سمعتنى أحدده لها، لأن ما سمعته هو الثامنة لا الخامسة. لعله ضجيج الألعاب ـ قلت لها ـ أو لغتى الانجليزية التى لم تصل مرحلة الاتقان، أو أسلوبى المرتبك فى الكلام هو الذى أحدث هذا التحريف. لقد كان حدسى صادقا عندما أرغمنى على الانتظار كل هذه المدة. كان يعرف أنها قادمة، ويعرف أيضا إلى أى مدى ستكون حياتى خاوية مضجرة، بدونها.

هكذا بدأت علاقتى بأول امرأة أواعدها فى حياتي. هذا الموعد الذى تأخر كثيرا عن موعده، لأننى انتظرته منذ أيام الصبا، ولم يتحقق ألا وأنا أبلغ الثلاثين من عمري.

اكتشفت بعد أن عرفتها، وعشت لحظات أدفئ جسدى بجمر أنوثتها، وأريح رأسى فوق وسادة حبها، أننى لم أستطع أن أتخلى عن عادتي، فى تسول المواعيد من كل امرأة أصادفها. أترك صاحبتى هذه، وأذهب الى برج الساعة كل مساء، أرقب مداخل الميدان بحثا عن طيف امرأة جديدة ضربت لى موعدا. أدركت أن جوعى للحب، صار جوعا أبديا، لن يجد له إشباعا مدى العمر. لقد أدمنت الانتظار تحت البرج، وكأننى أعوض بهذا الانتظار، كل السنوات التى عشتها، محروما من هذه المواعيد. أقف وحيدا، أعانى وأتعذب، وأراقب ظلى وهو يمتد ويزداد طولا بمحاذاة ظل البرج، حتى تغمره ظلمة الليل، وأتسلى بإحصاء عدد العشاق الذين يأتون ويذهبون، أنتظر أن يأتى دوري، مع امرأة جديدة، تهدل الشعر الذهبى فوق عينيها، فرفعته تبحث عني، لأركض نحوها قائلا:

- شكرا للسماء، هاأنت تجيئين أخيرا.

## نافخ الرماد

ملايين الكلاب المسعورة تعوي..

الطبول تزمجر بعنف ووحشية. والجحيم فى مكان ما يستعر.. ويفتح أفواه لهبة يأكل النهار. النهار يلتهب ويرتعش ويرتمى فاقد القوي.. حتى يتحول شيئاً، فشيئاً إلى ليل.. إلى رماد أسود كثيف يغمر الكون ويسد منافذ الدنيا.

قبائل بدائية منقرضة. نفضت عـن أبـدانها تـراب الزمن. وخرجت من كهوفها المجهولة. تدق الطبول وتوقـد الجحيم وتغتال النهار. أننى أنفخ رماد هذا الليل ا لطويل بلا جدوى، فهم الآن، فى مكان يحرقون النهار. يشعلون النـار فى بدنه الأبيض اللبني. كما فعلوا بالليل قبل أن يصبح ليلاً. لقد تكشفت لى هذه الحقيقة. ذات ليل طويـل أيـام الحـرب والغارات والطليان. اختفيت أيامها فى الكهف واختفى عنـى النهار. وتكشفت أمامى فى قاع الكهف حقيقة الليل والنهـار. لم يكن هناك فى الدنيا ليل كان هناك نهار واحد طويـل ألا ينتهي: غلالات ضوئه لا تنتهى أبداً. شمسه طازجة تشـتعل فى قبة سمائه دائماً وتخيلت فى ذلك الكهف كيـف حولـوا النهار إلى ليل عندما خرجت قبائل بدائيـة منقرضـة مـن

كهوفها.. وجاءت تحمل نيران مشاعلها وترقص فى اهتيـاج رقصاتها القديمة البدائية، وترسل صيحاتها الوحشية. كعـواء ملايين الكلاب المسعورة، ضربت حول النهار حصاراً كبيراً وبعد أن عزفت طبولها وأكملت أداء طقوسها، أشـعلت فـى بدنه النار. أحرقته. وشوهت ملامح وجهه حتى تحول إلـى فحم ورماد وأصبح ليلاً.

وعندما طالت أيام بقائى فى ظلام الكهف تصـورت أن ما بقى فى النهار، قد قتلـوه وتصـورت أن الـدنيا قـد أصبحت ليلاً لا ينتهي، وأنه مهما نفخت فى رماد هذا الليـل المحترق فإن ضوء الصباح لن يشتعل تحت الرماد.

لكن النهار لم يلبث أن جاء، خرجت مـن الكهـف ورأيته سليماً معافى. ينتشر فى كل مكان. إذا فقد هزم القبائل البدائية. وجاء. واندفعت خارجاً من باب الكهف وأنا أرحـب بالنهار وأضمه إلى صدري.

لكننى من يومها وأنا حزين.

كلما انتشر رماد الليل. نفخت رمـاده حتـى يـأتى الصباح وأتصور أنه قد يأتى يوم آخر يحرقون فيـه بقايـا النهار. ويحولونه إلى ليل.. تخرج القبائل البدائية من كهوفها

وتحرق بدن النهار حتى يصبح ليلاً. ثم ترقص فوق رمـاد جثته.

وهذه الليلة.

ها هو رمادها ينتشر، وأنا أنفخ دون جدوى أنها تمتد وتطول. والنهار لم يأت. لا بد أنهم يحرقونه الآن ويضيفون رماده إلى رماد الليل ليصبح ليلاً واحداً طويلاً لا ينتهي.

وأصابتنى حمى رعب مفاجئ، أنهم يقيمون عرسـاً كبيراً لحرقه. ها هو عواؤهم يخترق الجدران ويصل إلى. ها هى دقات طبولهم الهمجية ترن فى جوف الليل.

وتسلخت أصابعى وأنا أضرب الجدران بقبضة يدي.

لن يحرقوه.. لن يحرقوه.

لن أعيش حياتى أتنفس رماداً أبدياً لا ينتهي، ولـم أشعر بنفسي. إلا وأنا أندفع مهـرولاً خـارج داري. وفـى صيحات هسترية صرت أوقظ الناس. أنهـم لا يعلمـون أن النار ترتكب الآن جريمة حرقه ( فلا بد أنهم مثلى أصـدقاء النهار.. بدليل أنهم يخافون الليل.. ويختبئون منـه داخـل بيوتهم ثم يخرجون يلاقون النهار.. فـى مظـاهرة إنسـانية رائعة. طالما وقفت أراقبها عندما أراهم يفتحون مع إطلالـة

الصباح أسواقهم. عندما يهرولون إلــى أســواقهم. عنــدما يهرولون إلى مدارسهم ومصانعهم وحقولهم. عندما يملئــون الطرقات بدقات أقدامهم فى مسيرة كبيرة يلاقــون النهــار. وهرعت إلى النوافذ والأبواب المقفلة أطرقها وأصيح.

هيا.. هيا استيقظوا أيها النائمون، أن صديقكم العظيم يقتلونه الآن. أخرجوا لننقذه قبل أن يتحول إلى رماد.

واصطفقت الشبابيك وفتحت الأبــواب فــى حــذر. وأطلت الوجوه خائفة مذعورة تتساءل ما هنالك.. وانطلقــت الهمسات تملأ الدنيا حتى ضاع صوتي. فى همسات الأسئلة.

ولم تمض إلا لحظات قليلة حتى تخرج النــاس فــى تجمعات كبيرة بعضهم ارتدى معطفه وبعضهم جاء يهــرول فى لباس النوم. وامتلأت الدنيا صــخباً وضــجيجاً وصــار صوتى يضيع، وأنا أدلهم على الطريق. ووجدت نفسى أنــا أيضاً أضيع فى زحام الناس الــذين ملئــوا الشــارع، لكــن المسيرة الكبيرة بدأت. كان واضحاً أنهــم جميعــاً يــدركون الخطر الذى يتعرض له النهار وكان حجم هذا الحشد البشرى يزداد شيئاً فشيئاً.. فكلما مررنا بحى أو بشارع استيقظ أهلــه وفى صمت انضموا إلى مسيرتنا الكبرى. حتى مــن كــان

واقفاً فى الطريق من حـراس وخفـراء وعسـاكر دوريـة ومتشردين ودراويش. قام الحشد يأخذهم فى طريقه... بـل حتى الكلام والقطط الضالة. كانت تنضم إلينا، كـأن الحشـد مغناطيس يجتذب كل من يقع فى منطقة جاذبيته.

وكانت دقات الطبول تختـرق الضـجيج والزحـام وتصل إلى. وصيحاتهم الهجمية يتردد صداها فى أذني. أنهم يحاصرونه الآن فى حلقة كبيرة ويقيمون العرس الكبير الذى سيحرقون فيه بدن النهار ويرقصون فوق رماده لكننا سنصل إليها قبل أن يكملوا مراسيم وطقوس الحرق. سـوف ننقـذ النهار من بين براثنهم ونطلق سراحه لينتشر بشمسه وضوئه فى كل مكان..

مضى وقت طويل. ونحن نسير دون أن نصل إليهم.

وشيئاً فشيئاً بدأت دقات الطبول. تخفت فـى أذنـى والصياح يصل إلى خافتا، والظلام يتبخر فى الهـواء يمـد أعمد حمراء فى سقف الدنيا... ولم أصدق فى البداية، لا بد أنها خديعة، لكن شيئاً فشيئاً بدأت ملامح الصـباح الحقيقـى تظهر. جاءنا همس نسيمه ونشر علـى الأرض غـلالات ضوئية. ثم تأكد كل شئ عندما مد أذرع شمسه.

إذا فقد انتصر النهار مرة أخرى. لقد حطم حصارهم وأطفأ نار مشاعلهم. أن النهار قد أنتصر.. إذا يجب أن نعود بعد أن يجيء النهار..

ولدهشتى الشديدة، وجدت أن أحداً من الناس لم يحس بمجيء النهار. أحداً من الناس لم ير مثلى. أن المهمـة قـد انتهت. وأننا يجب أن نعود. إذا إلى أين نذهب الآن. بعد أن انتصر النهار..

ظلت المسيرة الكبيرة تتقدم كأن النهـار لـم يـأت. والشمس لم تشرق.

وازدادت دهشتى عندما رأيتهم يسرعون الخطى بعد أن أحسوا بدفء النهار. لقد ازداد حماسهم للمضي. وبحثـت عن تفسير لهذا كله. فلم أجـد. أردت أن أصـبح فـانحبس الصوت فى صدري، وقفت أفكر حتى وجدت نفسى أتخلـف عن المسيرة. إلى أين يذهب هؤلاء الناس؟ وقفت أرقبهم من بعيد.. كانوا يتدفقون فى سرعة وقوة.. وبدأ لى حشدهم مـن بعيد... كأنه غابة كبيرة تزحف إلى الأمام.. وكـان الغبـار الذى تثيره أقدامهم ينتشر ويكاد يحجبهم عني...

وخطاهم تهز الأرض تحت قدمى بعنف.. لا بـد أن المهمة لم تنته حقاً..

لا بد أن الذى جاء لم يكن صباحاً حقيقياً، لا شمسـاً حقيقية. لا بد أن هناك صاج آخر وشمس آخر. وأن هنـاك نهاراً حقيقياً لم يأت بعد.. وتداركت نفسي، تركت مـوقفي. ذهبت أعدو لا نضم إلى المسيرة الكبرى التى تبحـث عـن نهار حقيقي.

## نتحداك يا دالاس

كان اسمه (نتحداك يا دالاس) وقد التصق به هذا الاسم الغريب الذى لا يصلح اسما للكائنات البشرية، منذ أواخر الخمسينيات عندما كان يشارك فى السهرات الفنية التى تقيمها أندية طرابلس لنصرة الثورة الجزائرية وجمع التبرعات لها، وكان نتحداك يا دالاس يقدم فقرة ثابتة فى تلك السهرات، هى محاكاة وتقليد مذيع مصرى اشتهر فى تلك الفترة بتعليقاته الحماسية اسمه أحمد سعيد.

وكانت هذه الفقرة تلقى إقبالا كبيرا من الجمهور، حيث يلعلع صوته فى مكبر الصوت، مرددا تعليقا واحدا يحفظه عن ظهر قلب، ويعيده فى كل حفلة من تلك الحفلات، ليجد الجمهور يطلق صيحات الإعجاب بعد كل جملة يقولها وكانت الجملة الأثيرة لديه، التى يتفنن فى إلقائها، هى تلك الجملة التى تقول (نتحداك يا دالاس) وكان دالاس هذا وزيرا لخارجية أمريكا استقطب هجوم المذيع المصرى فى ذلك الزمان.

كنت برغم سنين العمر الخضراء، شغوفا بملاحقة المهرجانات السياسية، معجبا بما يقوله (نتحداك يا دالاس)

وكنت أراه يمشى وحيدا فى شوارع المدينة القديمة، فأمشى وراءه، لأحييه وأناديه باسمه الغريب، وكأننى أختبر حقيقة أن هذا الاسم صار بديلا لاسمه الذى ولد به، فيرد التحية باسما، إذ لم تكن الابتسامة، وبرغم اسمه الذى يوحى بالغضب، تفارق وجهه أبدا، وكغيره من دراويش الزوايا والفرق الصوفية، كان يحمل فى يده صرة ملابس أينما ذهب، لأنه لم يكن يعرف أين سينام ليلته !

وكان الناس يدركون أن (نتحداك يا دالاس) لم يكن يعى خطورة الكلام الذى يردده فى ظل نظام حكم تابع لأمريكا، ولكن أعوان النظام أهملوه فلم يعبأ أحد به أو بما يقوله فى تلك السهرات.

وحدث أن رافق الرجل فرقة جوالة للأذكار والفنون الشعبية، أوصلتها جولاتها للمشاركة فى إحياء حفل كبير يقيمه قائد القاعدة العسكرية الأمريكية بطرابلس لضباطه وضيوفه العرب، وخلال الحفل اعتلى (نتحداك يا دالاس) المسرح وأمسك بمكبر الصوت، وباشر فى تقديم خطبته الشهيرة التى استقطبت دائما الإعجاب والتصفيق وما إن بدأ صوته يلعلع مقلدا أحمد سعيد نتحداك يا دالاس، نتحدى

صواريخك وطائراتك، نتحدى قواعدك وأساطيلك، نتحدى طغيانك وجبروتك، حتى أحاط به جنود القاعدة وهو ما زال فوق المسرح، يشهرون فى وجهه السلاح، ويعلنون حالة الطوارئ فى القاعدة خشية أن تكون هذه الخطبة النارية المعادية بداية حرب شعبية ضدهم.

أفزع الرجل الدرويش جنود القاعدة فغيبته الشرطة المحلية خلف الشمس أياما ثم أفرجت عنه.

أعواما بعد أن مات دالاس، واختفى أحمد سعيد، التقيت به وقد تقدم به العمر، يشارك فى الإعداد لحفل فنى يقيمه أحد أندية طرابلس، وكان يدرب شبلا من أشبال النادى على تقديم إحدى فقرات الحفل، وكانت الفقرة هى ذات الخطبة الإذاعية لأحمد سعيد (نتحداك يا دالاس).

# هموم صغيرة

هذا الليل ...

ككل ليل فى المدينة، ابتدأ مهرجاً، معربـداً، نزقـاً، كأنه يعلن عن نفسه بأضوائه التى تشع وتلمـع عبـر كـل سنتمتر من رقعته الواسعة، أضواء تتـراقص – مبهرجـة ملونة – على واجهات المحلات، وتتساقط على الأرض من المصابيح المتناثرة فى الأزقة والشوارع وعلى الكـورنيش. وتفح من أعين السيارات التى تزحم بها شـوارع المدينـة، وتنطرح فى الشوارع الخلفية متسللة من أبـواب الحوانيـت التى تضيئها "فازات" صغيرة، وتلمع من شـبابيك البيـوت المضاءة فى الطوابق العليا ... كأنها أعين كثيـرة سـحرية تملأ ليل المدينة.

وتشترك جميعها فى ارتكاب عملية تزييف واسـعة النطاق لليل المدينة الأسود..

وتتعقد الضجة فى أفق هـذا الليـل... كلاكسـات وأجراس وصفير أطفال وهدير سيارات ولغط رجال وخوار سفن فى الميناء وإيقاع خيول العربات، وشنشنة أجراسـها، وطرقعة السياط فوق رؤوسها.

وتدريجيا. تنحسر عن هذا الليل الأضواء، وتهدأ من حوله الضجة، فيستعيد لونه الأسود الطبيعى كلون الحـزن، ويكتسب هدوءاً وسكينة، كأنه هو الأخر ينـام، أو كالشـاب الذى يبتدئ مهرجاً معربداً نزقاً ثم يصل إلى سـن العقـل، فيتوب ويهدأ ويستكين.

وهكذا ما أن تأتى الواحدة ليلا، حتى يختفى كل ذلك الهدير المتصل، يعطى الفرصة لهـدير آخـر فـى رؤوس الناس.. لا يجد فرصته فى الهدير الكبير... ذلك هو هدير.. الهموم الصغيرة؟.

***

الساعة الواحدة ليلاً

الشارع فارغ، تماماً، كالإناء الكبير الفارغ.

وكان هو يمشى وحده..

خطاه على الرصيف ترن، رتيبة، موحشة، ... تـك ترك تك.. ترك، ويرجعها الصدى ترجيعا رتيبا موحشا.. تك ترك... تك.. ترك؟

كان يمشى وعن يمينه وشـماله عشـرات الظـلال الباهتة التى تتداخل فى بعضها البعض لتصنع حوله دوامـة

كانت هى ظلاله التى عكسها المصابيح الصغيرة الباقية فـى الشارع... كانت ظلاله كأنها أشباح صغيرة ترافقـه. وفـى ذهنه، أكثر من فكرة، تنثال وتتداخل وكلها باهتة... كظلاله التى يجرها على الرصيف تـذكر جلسـاته المتكـررة فـى المقهى، تذكر طوابير الناس الذين يعبـرون الشـارع مـن أمامه.. تنطرح عليه ظلالهم.. لحظة ثم تمضـى.. وأحيانـا كان يشتم ظلالهم، فقد كانت تفوت عليه فرصة أن يسـتمتع بالاسترخاء فى أشعة الشمس.

حتى ملامحهم كثيرا ما تهيأت كأنها ملامـح رجـل واحد... فى عينيه قلق وترقب، وعلى وجهه تنعكس ظلالـه حزينة كئيبة، حتى خطوهم، منفعل، عصبى، كأنهم مطاردون كأنهم مثله وراء ظهورهم سياط.

ورأى دخانا كثيفا، ورأى طفلا صغيرا مهمل الثياب يقتحم الدخان الكثيف، ويمسك فى حديد سيارة الشحن الكبيرة التى تقذف سحائب الدخان... وتمضى بـه السـيارة إلا أن صوتا جهوريا عريضا متخشرفا يركض وراءه.

اترك السيارة.. انزل أيها الكلاب الصغير. إذا عـدت إلى التشعلق السيارة فسوف أسلخ جلدك وأعلقه على وتد فى البيت كشاة الضحية. كان صوت والده.

من يومها، منذ أن كان طفـلا يتشـعلق السـيارات وصوت والده يركض وراءه.. عريضا متخشـرفا ولاذعـا كالسوط ولكنه اليوم لم يركض وراءه.. بل فرقع فى وجهـه أتعصى أوامرى، أيها الولد العاق؟ أنت من اليـوم لـم تعـد ولدى. أنت تخرج حالا من البيت... أتفهم... أخـرج حـالا ... أخرج ... أخرج؟

حدث ذلك فى الصباح.

والده لم يذهب إلى وظيفته بالوزارة. وهو أيضا لـم يذهب إلى الشركة التى التحق بها موظفاً منذ عامين عنـدما تخرج من مدرسة تجارية متوسطة.

فاليوم عطلة..

وكان كل شئ فى البيت، هادئاً. عنده أتاه صوت والده

- محمود ... محمود

كان هو ساعتها فى حجرته، أتـم تنـاول فطـوره، وجلس على المنضدة الصغير، ينقل من قلبه أشياء ويضـعها

فوق الورق. فقد كان يكتب رسالة إلى زهرة وانتفض لصوت والده، هو دائماً ينتفض لهذا الصوت المفرقع اللاذع. وتـرك كل شئ كما هو.. وذهب إلى والده.

وبعد مقدمة قصيرة، عن نصف الدين، وعـن سـن البلوغ وعن الأحفاد. قال له والده وابنه عمك "عيشة" ... فتاة مهذبة، وأنت وهى أبناء عم، وفى عمـر متقـارب... وقـد اتفقت أنا وعمك سليمان على أن نفرح بعقد قرانكما فى الأيام القريبة.

وعلق الوالد أهدابه بمحمود الذى كان واضحا علـى رقعة وجهه أنه مندهش، نظر الوالد إلى وجـه ابنـه، إلـى الشارب الذى رباه حديثا، فبدا كخط أسود يشترك فى توضيح الصورة اللونية لوجه محمود الشاب التى ذقنـه الـذى بـدأ يكتسب خشونة وخضرة إلى قامته التى بدت طويلة، أطـول منه، إلى أصابعه التى لم تعد صغيرة وناعمة، بدت خشـنة وطويلة وتنبو فوقها شعرات سوداء ... حتى أظافره التـى كانت صغيرة ومصقولة، لم تعد كما كانت اكتسبت خشـونة الرجال.

بدا على الوالد كان يكتشف لأول مرة، هذه الأشـياء في محمود...

وتمتم محمود في ذهول...

- ولكن..

يجب أن يصارح والده...

كيف تستطيع أن تقرر مصيري دون أن أعرف أنـا لم أعد ذلك الطفل الذى تسحبه من يده فيسير وراءك فى كل مكان، فى الشارع، فى الحديثة، فى البيت... فى.. فى طريق الحياة... يجب أن تعرف ذلك.

أنا اليوم رجل

أنا لا أريد أن أتزوج ابنة عمى، إنى أعرف رأيـك عن الأسرة وعن العرق وعن الدم وعن الأصـل... وعـن أسرتنا التى يجب ألا تسيح وتميع وزيتنا الذى يجب أن يكون فى دقيقنا.

ولكننى أرفض

إننى أرفضك يا أبى،

فأنا لى فتاة سوف أتزوجها سواء أردت أم لم تـرد، سوف أكون معها أسرتى الصغيرة وسأكون سعيد معهـا...

سنكون أسعد أسرة فى العالم، أنـت لا تعـرف زهـرة... جارتنا... هى ابنة الساكن الجديد فى الشـارع، لا أدرى إذا ما كان وقتك الوظيفى المزحوم بـأكوام الملفـات ومشـاكل مرءوسيك من موظفين قد سمح لك بأن تتعرف على جيراننا الجدد، وعلى والدها الذى نقل على إحـدى الوظـائف هنـا بالمدينة. أنت لا تعرف قصتى معها. لقد رأيتها ذات يوم من نافذة حجرتى، رأيتها تطل من شباك بيتهم المفتـوح نصـف فتحة. وغازلتها.. ويومها عندما غازلتها لم أكن أظن إننـى سأحبها، وبمثل هذه القوة من الحب.. غازلتها باعتبارها فتاة جميلة فى حينا ليس إلا. و...

وأنا لا أستطيع أن أحكى عن كل المراحل التى مرت بى حتى أحببتها. لقد تعددت رؤيتى ولقاءاتى بها وفى هـذه اللقاءات حدث أكثر من شيء... ههه... هه. ليس ثمة وقت للضحك ... مرة كنت أسير فى الشارع رأيتها، كانت تتـأبط حقيبتها ذاهبة إلى المدرسة، ورأيت معها شابا فى مثل سـنى كان يتكلم معها، وشعرت بشيء كالغيرة يتقد فى قلبى. مـن هذا الولد الغريب الذى يتكلم مع جارتى الجميلة. هـل هـو حبيب؟ وتقدمت مارا من أمامها، واكتشفت أنه ليس حبيباً ولا

قريباً بل هو مجرد ولد شوارعى يضايقها بمغازلاته ورأتنى ... ورأيت نظراتها كانت تستنجد بى لأدفع عنها هذا الـذى يضايقها، ورغم ما تعرفه عنى يا والدى من هـدوء ومقـت شديد للمشاجرات، فقد دخلت من أجلها فى معركة صغيرة.. ولم أنهزم.. أبعدت عنها الوالد الذى يضايقها وأخذت مكانـه أنا.

هذه حادثة تافهة من الحوادث الصغيرة التى تجمعت فى روافد واحد، لتصنع مجرى صغير لحبنا.

بل اكتشفت فى أخر الأمر أننى لم أعد قادر على أن أغازلها شعرت أننى أقدرها وأحترمها... كذلك لم أعد أغنى لها من الشباك "أكلك منين يا بطة"

وهكذا نما حبى لها.

وكنت أحيانا أرافقها فى طريقها إلى المدرسة مـارا بالشوارع الخلفية بعيدا عن أعين الناس لا بد أنك يا والـدى ستضحك وتقول لعب أطفال. ولكن لا يهم فقد اتفقـت معهـا حتى على ومرت لحظة قبل أن يهز الصمت صوت الوالد... لكن ماذا؟

لكننى لا أريد أن تقرر لى مصيرى، أنا لم أعد كمـا تعودت أن تعاملنى دائما طفلا قاصراً... أنا اليـوم رجـل، وسأواجه مصيرى كرجل.. وسأقرره بنفسى سأقرر مصيرى بنفسى وعاود والده السؤال.. فى ضيق ... ونفاذ وصبر.

كن ماذا. تكلم يا محمود؟

لكن ... لكن.. أنا لست موافقاً على الزواج من ابنة عمى وكأنما ضغط بهذه الكلمة على زر لتهب كل العواصف فى العالم، فقد هب الوالد غاضباً، مزمجراً كيـف؟ ... مـن هى التى تريد أن تتزوجها... من؟ ... تكلم انطـق.. مـن هى.. فتاة أخرى أحبها اسمها زهرة. وكأنما قرر الوالـد أن يستنفذ كل قواه فى كلماته، فزمجر فى حنق لا حدود له، وقد تهدج صوته واحمرت تقاطيع وجهه وجحظت عيناه.. كـان الذى يحدث أمامه.. شيئاً غريباً.. وعجيباً أن يحدث مثله فى تاريخ تعامل الإباء مع الأبناء..

أتعصى أوامرى أيها الولد ...؟

كان يلهث ... وسحنته بدت متقلبة متغيرة، كأنما هى ليست سحنة وجهه الحقيقى، واختلط هديره بصوت محمـود بتدخل الأم لتصالح بين ابنها ووالده.. وتهالك الوالـد علـى

كرسيه، فى إندهاش غريب، كان الذى يحدث أمامـه شـيء فوق طاقة الحياة أنه أشبه بأحداث يوم القيامة وعاد يصـرخ فى صوت محمود.

أنت من اليوم لم تعد ولدى ... أنت تخرج حـالات من البيت... أتفهم؟... اخرج حالا.. اخرج اخرج وكل مـا عاد يعيه محمود، هو اصطفاقه باب كبير وراء ظهره.. قطع بأفكاره كل هذا الشوط...

ومع ذلك لم يصل بعد نهاية الشارع الذى بـدا الآن واسـعا كبير... أكبر وواسع منه فى النهار.

انتهى من الشارع ودخل شـوارع أخـرى ضـيقة ووصل البيت. هذا هو البيت الذى سكنه اليوم بعد أن تـرك بيت والده.. هو بيت صديق أعزب رحب بمشاركة محمـود له فى البيت.

وبحث عن المفتاح فى جيبه أنه اليوم الوحيد الـذى يسهر فيه حتى هذا الوقت من الليل.

دون أن يجد من يوبخه وينهره وقد يضـربه. لقـد وجدانه لأول مرة يضع فيها مفتاح بيت فى يده.. وأخذ يقلبه فى يده كأنه ليس مفتاحاً عادياً من النحاس.

كأنه اثمن جوهرة فى العالم

أين كنت أيها المفتاح؟

وعنى وهو يدخل البيت

وين ترررورن.. وين أيامك وين..

وفى حجرته بالبيت عندما أضاء النور، لم تكن لـه ظلال عديدة، باهتة.. ليس لها لون، كان لـه ظـل واحـد، ينعكس على الحائط كبيراً ... وليس باهتا بل هو واضح كأنه منحوت فى الحائط، ونام.

ولأول مرة ينام لوحده خارج بيتهم بعيدا عـن أمـه وبعيدا عن والده، وبعيدا عن حجرته التى ما تزال تعيش فى ذهنه بكامل تفاصيلها الصغيرة. بكانون النار الصغير الـذى تتقد جمراته وتطلق بين الحين والحين شرارات تلسعه أحياناً فى يده. بالكوميدينو الرابض دائما بجوار رأسه وقد تبعثرت فوقه صحف ومجلات وكتب... بـبلاط الحجـرة الأسـود وأبيض الذى يلمع دائماً... بالحزام الكـاكى الـذى يحـيط جدران الحجرة...

وبدأ عليه كان عاد مهموما حزينا هل صحيح سيقدر على الصمود فى موقفه وحده فى الحياة هل يستطيع أن يحدد

مصيره ويقرره هل صحيح هو قادر على أن يحمل عـبء الحياة لوحدة وقرر أن ينسى كل هذه التساؤلات وأن ينام.

وقبل أن يسبل رموش عينيه وينام، تذكر، زهره لأبد أنها حزينة مهمومة بعد أن علمت عن موقـف والـده منـه ولكنها يجب إلا تحزن.. سيكون معها رجلا.. ستعرفه دائمـا رجلاً.

وكأنما رأى طيفا يطل عليه فى الحجـرة... وكـان وجهها الجميل شاحباً تفرشه ظلال من الحزن والكابة ونظر للطيف فى حنان كأنه يناجيه.. أى زهرة ا لحبيبة.

لا تحزني....

هذه الظلال الكئيبة الشاحبة التـى تفتـرش وجهـك العذب الصغير سوف أترصد لهـا ذات يـوم... وأرتكـب جريمة قتلها ومال رأسه على الوسادة وسقطت رموش عينيه فى إغفاءه سعيدة.. وارتفع شخيره عاليا...

# وفاة بائعة الماء

السلام ... ما سمعتوش؟

عليكم السلام.. إن شاء ا   خير.

أمى سعيدة.

خير ها؟

خلاص.. طلعت فى عقلها وخشت.. اليوم الصبح أمى سعيدة صابها ما صابها.

كتيار من الهواء السرى هذا الخبر بين أهل البلدة.. وبنفس السرعة السحرية العجيبة التى يسرى بها كل خبر جديد غريب يجد فيه الناس طعماً مثيراً يفتقدونه أحاديثهم الروتينية المريرة التى لا تتعدى دائماً، الحمارة التى ولدت جحشا، أو كيلة الشعير التى أصبح ثمنها ثلاثين.. وذكريات الشيوخ التى يمضغونها دائما بافواههم الحالية من الأسنان لكأنما يعوضون بها عجز أفواههم عن مضغ الطعام، ذكريات جميعها عن الحرب والسنين الغابرة التى –ويا حسرة – لن تعود ... وسرعان ما أصبح هذا الخبر شغل البلدة الشاغل بكبيرها وصغيرها وحديث كل ميعاد يقوم ويعقد فالنساء بجلساتهن الطويلة أمام الأفران التى تحلى

الجلسة أمامها لصهيدها الدافئ الذى يضفى أمـام مجمعهـن طعماً مخدراً لذيذ يمدد فى عمر الجلسة والشـيوخ بقعـدتهم الأبدية فوق محراب الجامع والذى لو كان يمنـاهم لقـاموا بصلاتهم وتناولوا أكلهم وشربهم وهـم جالسـون فوقـه... والشبان الصغار المشدود ودود أبداً إلـى الكراسـى القليلـة المتداعية ذات اللون الشاحب التى تعطى معنى باهتاً إلى أن هذه هى قهوة القرية الوحيدة...كل هؤلاء كان حـديثهم قـد توحد ... وغدا يدور حول أمى سعيدة التى فقدت عقلها هذا الصباح.. حتى الأطفال الصغار الذين يجتمعون ويؤسسـون من بينهم دولا وهمية بما فيها من قواد وجيوش تهاجم بعضها بعضاً.. تركوا كل ما هم فيه من لعب وجروا يتسابقون إلـى الخرابة التى تقيم فيها أمى سعيدة.. ليشاهدوها عن قرب.

وأمى سعيدة، امرأة عجوز، داكنـة السـمرة، فـى الخمسين من عمرها، شغلتها حمل الماء للمنازل التـى لـم تدخلها الحنفيات مقابل تسعيرة محددة لا تزيد ولا تنقص ست مليمات للبيدون الواحد، لا غير.

أمى سعيدة راح كل فرد فى القريـة يحكـى خبـر جنونها، ولا ينسى أن يدعى – ورأسه لا ينخفض أنـه أول

من رآها وأول من لاحظ عليها ما أصابها من مس بفطنتـه المعهودة التى ليس لها مثيل. جميعهم رووا كيف أن المـرأة العجوز امتنعت اليوم منذ الصباح على أن تحمل الماء لأحـد وعندما أتوها يستفسرون عن سبب امتناعهـا، رمـت فـى وجوههم التراب وشخطت فيهم بأنها ليست خـادم أبـيهم أو جدهم وأنهم جميعاً قرود، وأن منصور الوحيد السيد ولسوف يأتيهم اليوم أو غداً -هى متأكدة – يبرهن لهم عـن سـيادته وعلى أن أمه أحسن الأمهات وأعظـم الأمهـات.. وخيـر الأمهات.

وكلام كثير ليس له معنى. ولا يفهم منه شيء اللهـم لا أن المرأة العجوز تصابت. ومنصور الذى تحكى عنه هو ابنها وقد جند فى الجيش منذ أكثر من ثلاث سنوات وطيلـة هذه المدة الطويلة لم يحضر إلى البلدة ولم تأت منـه حتـى رسالة واحدة وأمى سعيدة لم تعرف من أخبار منصور شيئاً، أكثر من أنه سافر مع الجيش من طرابلس إلى برقة وعملت أمى سعيدة كل ما تقدر عليه من أجل أن تعرف أى شيء عن ابنها حتى أنها بحثت عمن كتب لها رسالة لتبعث بها إليـه، حملتها أشواقها وعتابها وقلقها عليه وأنت وين يا منصـور؟

وكيف تنسى أمك يا منصور.. وإن شاء ا ما عندك سـويا وليدى يا منصور... ولم تنس أن تكتب له في آخر الرسـالة الأبيات الزجيلة التى تفتقت بها قريحتها بمناسبة غيبة الابـن الطويلة والتى بدأتها- "الفرقة يا كبدى طعمها مر".

ووضعت الرسالة داخل ظرف حوافه ملونة اشـترته من دكان الحاج خليفة واشترت كذلك طـابع بريـد بقـرش ونصف وضعته على الجواب... وبعثت به إلـى منصـور بغير عنوان سوى ما وضعته تحت الاسم –جنـدى الجـيش الليبى، برقة – وبقيت مع دمعاتها تنتظر الرد ... لكن بـلا جدوى، فقد كان يمر الشهر بعد الشهر وأمى سعيدة تتردد كل أسبوع على السباك الصغير، حتى تـوزع هنـاك البوسـتة الأسبوعية ويقرأ الموظف الكهل الذى يغطى وجهـه تعبيـر ليس له معنى الرسائل حتى ينتهى منها ثـم يقفـل الشـباك، والتعبير الذى ليس له معنى ما زال يغطـى وجهـه الكثيـر التجاعيد.

وتظل أمى سعيدة واقفة أمام شباك البريد – بعـد أن يقفل مدة تصبره من الوقت كأنها لا تصدق أن منصور لـم

يبعت لها بالرسالة ثم تجر أقـدامها راجعـة إلـى خرابتهـا والدموع... نفس الدموع تسبق خطواتها المبعثرة.

وأحيانا كانت عندما تجد نفسها على هذه الحالة تـدق الشباك المقفول، فيفتح، يصفعها وجه الموظف الكهل الـذى يغطيه تعبير ليس له معنى..

أيوه.

قوللي... ولدى منصور.. مابعتليش جواب؟

ما هو خلاص... الجوابات وزعنـاهم قـدام عيونـك ... مافيش.. مافيش.

ثم يتمتم وهو يقفل فى وجهها الشباك

ناس لا يرتاحوا ولا يخلو من يرتـاح.. مهـدودة.. حزينة مبعثرة كانت أمى سعيدة تعود... والـدموع.. نفـس الدموع تسبق جرجرة أقدامها فوق التراب. والخبر ... يقوم بدوريته العجيبة بين حوارى البلدة كزوبعة، تستعجل نهايـة المطاف.

ولم يصدق الناس بعضهم بسهولة، فقد كان الواحـد منهم يستمع إلى كلام الثانى الذى يظل يحلف ويقسم الإيمـان الغليظة بأن أمى سعيدة "خلاص" اللى صابها صابها. ويدعى

الأول عدم التصديق، ثم يقوم فى حينه والكلمات تتناظر مـن بين شفتيه – لا ... لا.. هذا مجال، محال نعم محال فـأمى سعيدة المليئة تعقلا وهدوءا محـال أن تصـاب بـالجنون.. ويذهب هذا الذى أدعى أنه لم يصدق.. حتى إذا ما وجد.

جماعة مجتمعين بادرهم – السلام ... ما سمعتوش.

وعليكم السلام إن شاء ا خير..

أمى سعيدة.. خلاص.. اليوم الصبح اللـى صـابها صابها وعندما يتشكك المستمعون فى صحة هـذا الخبـر.. يرتفع صوته مؤكداً وكأنه أمى سعيدة نفسها.

وا حتى هذا كلام ... كيف مش صحيح كيف وهو أنى اليوم الصبح رأيتها بعينى وا بعينى يا نـاس. ويسـرد على أسماعهم الحكاية مدعمة بالأيمانات والأقسام مـدعيا – طبعاً – أنه رأى أمى سعيدة بعينى رأسه. وتغيـر نظـرات القوم حيال أمى سعيدة... أضحت كلها تحمل معنى كبيراً من الرهبة والخشوع.

فلم تعد المرأة الفقيرة المعدمة التـى يشـتمونها إذا تأخرت عليهم فى جلب الماء بل أضحت امرأة رهيبـة ذات جاء وسلطان وسر باتع عظيم ... يخافونها ويرهبون جانبها

ويحملون خوفا مستشراً لملوك الجان المسـخرين لخـدمتها وظلت الأقدام تأخذ طريقها إلى الخرابـة الصـغيرة التـى تسكنها، الأقدام كثيراً ما ركلـت أمـى سـعيدة، وارتكبـت الحماقات المؤسفة فى حقها.

والأفواه التى كثير منها كانت تستهين بأمى سعيدة فلا تتورع عن سبها وشتمها إذا ما دعى الأمر صارت اليوم تقبل يديها بكثير من الضراعة والمذلة والخشوع.

وكثير من عجائز القرية اللاتى كن يؤذين أمى سعيدة ويحقرنها شعرن بمدى الخطأ العظيم الذى ارتكبته فأخذت كل واحدة منهن بمجمر وملأتها بالجاوى واللوبان، وباعـت أن كانت لديها حارة أو اتنتين من البيض واشترت بثمنها بقـدر ما يستأهل مقام أمى سعيدة من الشموع ثم تأخذ طريقها تجر أطراف ردائها إلى خرابة أمى سعيدة لتبكى بين يديها وتقبل الأرض تحت قدميها.. بغية التفكير ثم تظل الساعات الطوال تتضرع وتطلب من أمى سعيدة السماح.

- التستور يا أمى سعيدة... إيدينا ورانـا يـا أمـى سعيدة، بركتك معانا يا أمى سعيدة.. السماح يا أمى سـعيدة.

كل هذا على أمى سعيدة تحـن وتعطـف وتتلطـف بكلمـة مسامحين.

وبعضهم كان يحضر بابنه المريض أو ابنته المشلولة إلى الخرابة بغية أن يكتب لها ا الشفاء بجاه وبركة سـاكنة الخرابة أمى سعيدة... ويظل يتضرع ويبتهل مردداً

- بجاهك عند ا يا أمى سعيدة...

ومع كل مظاهر الضجة التى أحاط بها القـوم أمـى سعيدة، فقد ظلت مستكينة إلى الصمت وقليلا ما كانت تثـور على صمتها هذا فتأتى ببعض التصرفات الشاذة التى يعتبرها القوم أفعالا أذن بها الخدام الصالحون...

فكانت تأكل التراب أحيانا. وتشـد بشـعر رأسـها الأشعث المتطاير أحيانا أخرى.. وتبكى وتولول وتظل تنادى ابنها الغائب ... "منصور. منصور.. منصور"

وبعد نوبة التشنج والصراخ، تهدأ، وتظل تتكلم فـى صوت معاتب عميق، وكأن ابنها واقف أمامهـا.. والـدموع تسح فى حرقة من عينيها.

عندك حق تعمل فيا هالعمل كله يا خـاين.. غايـب عليا كم عام فى عام واليوم تجينى بعد هالغيبة الطويلة كلها..

لا تقول عندى أم تستنى فيا، لا تقول عندى امـرأة عجـوز قلبها عليا.. لا تقول أمى المسكينة يصيبها ما يصيبها علـى خاطري؟ ترضى تعمل فيا هذا كله يا خاين.. يا للى غضبانة عليك أمك؟

والدموع نفس الدموع.. تنساب عبر أخاديد وجههـا المتآكل المحروق.

وكان هذا يؤكد الاعتقاد الراسخ فى أذهان الناس بأن الملوك الصلاح الذين يخدمونها قد أحضروا لها ابنها وأخفوه عن أعين الناس وها هى الآن تكمله وتعاتبه بكلماتها التى بها الكثير من دالة الأمهات بل أن أحد شيوخ القرية ذهبت يؤكد أنه قد رأى أمامها طيف ابنها منصور أبيضاً شفافاً كالملاك.

وكان من عادة زوار أمـى سـعيدة أن يـأتوا إلـى خرابتها فيبقوا عندها إلى أول الليل، حتى صباح اليوم التالى، فتتجدد الزيارات وتتجدد التبريكات والطلبات.

ومرت أيام..

إلى أن كانت صبحية أحد أيام عندما أتـى الأطفـال وجاءت العجائز لزيارة أمى سعيدة كما هى العادة كل صباح فإذا بالجميع يجدون الخرابة خالية ليست بهـا أمـى سـعيدة

وانفغرت الأفواه وارتفعت الحواجب فوق العيـون ولطمـت الأيدى الصدور دهشة وتعجبا، تعجبوا لأنهم يعرفون أن أمى سعيدة لم تكن تخرج من خرابتها حتى وإن خرجـت فقريبـاً منها لكن ها هم لا يجدونها لا فى الخرابـة ولا بقربهـا ولا حتى بالمنازل بالمتناثرة من حولها... وبعد بحـت طويـل شارك فيه كل صغير وكبير فى القرية وجدوا أمـى سـعيدة مرمية وسط الرمال خارج البلدة... وهى تحشرج وتحتضر، وجدوها فى طريقها إلى الموت. وعندما أتوها رفعت إلـيهم رأسها بشعرة المتطاير المليء بالرمال والتـراب ونظـرت إليهم نظرات مجنونة من خلـف أهـداب غبـراء. معفـرة بالرمال... وحشرجت فيهم بصوت محموم ابعدوا عليـا ... خلونى فى حالى ... منصور ولدى ينادى عليـا ... يبينـى أنجيه.. ابعدوا عليا بنمشى لولدى منصور يقول يا أمـي... هانى جيتك يا منصور يا ولدى.. منصور ... منصور...

الدموع، نفس الدموع ... تغسـل صـفحة الوجـه المتآكل المجنون. التلال القريبة تطلق صدى بعيداً لنداء أمى سعيدة الحزين وكأنها تشارك هذه الأم حزنهـا. وبعيـدا...

وبعيداً.. حملت الرياح، النداء الحزين لتبدده عبـر الأركـان الأربعة.

وأسلمت أمى سعيدة الروح وهى تردد اسـم ابنهـا الغائب الذى لم تكتحل أنظارها برؤياه منذ ثلاث سنوات.